

عـادل حـمـودة

الديمقراطية ..
ولعبة الكلاب البوليسية

الديمقراطية ولعبة الكلاب البوليسية

الديمقراطية ولعبة الكلاب البوليسية

مقالات متنوعة للأستاذ عادل حمودة
تم نشرها بجريدة الأهرام ـ صباح السبت

الطبعة الأولى: يناير ٢٠٠٣

رقم الإيداع : ٢٠٤٩/٢٠٠٣

الترقيم الدولى: 5 / 23 / 5930 / 977

تصميم الغلاف : شاهر وهبة
الجمع التصويرى: جى. سى. سنتر
الطباعة : إنتر برس



إدارة التسويق: ٣ شارع محمد أنيس - الزمالك
القاهرة ت: ٧٣٨٣٨٨٧ - ٠١٢/٢١٥٧٤٦١

عادل حمودة

الديمقراطية ولعبة الكلاب البوليسية



دار الفرسان للنشر

١ خرافة قتل عبد الناصر بالتدليك !

الرواية شهيرة جداً .. سأل رئيس وزراء الصين الأسبق والأشهر «شواين لاى» أول وفد مصرى يزور بكين بعد وفاة جمال عبد الناصر: «لماذا مات جمال عبد الناصر ..؟!» .. وفوجئ أعضاء الوفد بالسؤال ويمكن أن نقول صدموا . أو ذهلوا .. فلا أحد فى مصر يتساءل: «لماذا» الموت.

وراح «شواين لاى» يحسب عمر جمال عبد الناصر .. لقد ولد فى ١٥ يناير عام ١٩١٨ ومات فى ٢٨ سبتمبر عام ١٩٧٠ .. أى أنه لم يعش سوى «٥٢ سنة و ٨ شهور و ١٣ يوماً» .. وتساءل المسئول الصينى الذى ظل على قيد الحياة حتى سن الثمانين: «هل هذا ممكن ؟»

فكان الجواب: «هذه مشيئة الله» .. فقال «يجب ألا نحمل الله مسئولية ما نفعل . لابد من سبب .. لقد مات جمال عبد الناصر شاباً .. إن سن الـ ٥٢ هى سن صغيرة .. اننى الآن فى الثانية والسبعين ولا أزال أعمل .. وفى صحة جيدة .. إننى لا أستطيع أن أتصور كيف مات وكانت تتوافر له أفضل عناية طبية ؟ .. كيف سمحتم له أنه يموت ؟» .

ولم يتردد «شواين لاى» فى أن يتهم السوفيت بقتل جمال عبد الناصر بعد أن

خدعوه وكسروا قلبه ودفعوه إلى أكثر من مأزق ثم تخلوا عنه .. وتصور الناس أن اتهام «شواين لاى» هو اتهام جنائى .. لا سياسى .. وكان أن بدأ الهمس عن الوفاة غير الطبيعية لجمال عبد الناصر يتحول إلى صخب وجدل وتحقيقات سرية أجرتها أجهزة المخابرات فى واشنطن ولندن وباريس وتل أبيب .. وفى العالم العربى لم نجد من يوجه تهمة القتل العمد إلا الشعراء .. ففور إعلان نبأ وفاة جمال عبد الناصر اهتزت أوتار قلب نزار قبانى بقصيدته الشهيرة: «قتلناك .. قتلناك يا آخر الأنبياء» .. قتلناك .. وليس غريباً علينا .. قتل الصحابة والأنبياء .. فكم من رسول قتلنا .. وكم من إمام ذبحناه وهو يصلى العشاء».

كان نزار قبانى يقصد عملية القتل بالإرهاق التى اغتالت فيها صراعات ومذابح الأمة العربية قلب جمال عبد الناصر .. وأجهزت على ما تبقى فيه من نبض .. وحياة .. لقد كان اليوم الأخير فى حياة جمال عبد الناصر هو يوم «إيقاف نزيف الدم» بين الفلسطينيين والأردنيين فى عمان .. فيما عرف بأحداث «أيلول الأسود» .. وقد دخل أطراف الصراع - ياسر عرفات والملك حسين - قاعة مؤتمر القمة الذى عقد فى القاهرة وهما يحملان المسدسات والذخيرة .. وقضى جمال عبد الناصر آخر يومين فى حياته لنزع سلاحيهما .. وعندما انتهت المهمة الشاقة وقف فى شرفة جناحه فى فندق «هيلتون» لينظر إلى النيل وهو يقول: «هذا أجمل منظر تراه العين» .. ثم ذهب إلى مطار القاهرة ليودع الملوك والرؤساء الذين حضروا القمة وكان آخرهم أمير الكويت .. وعندما انتهت مراسم الوداع قال: «سوف أنام بعد أن أعود إلى البيت .. سوف أنام نوماً طويلاً».

ودخل جمال عبد الناصر فراشه منهكاً .. ولحق به الأطباء .. وكان آخر ما فعل هو أنه سمع نشرة أخبار الساعة الخامسة فى الراديو .. ثم قال: «لم أجد فيها الخبر الذى كنت أتوقعه» .. وعندما نصحه الأطباء بالراحة .. قال: «الحمد لله .. دلوقت استريحت» .. «ثم دخل فى غيبوبة الموت» .. وانحنت السيدة قرينته تمسك بيده وتقبلها وهى تقول: «لم يكن لى فى الدنيا غيره .. ولا أطلب شيئاً إلا أن أذهب إلى

جواره حيث يكون» .. واقبل أحد الأطباء يغطى وجهه .. فنظرت إليه متوسلة: «اتركوه لى .. أنظر إليه .. أملأ عينى به» .. واستدار كل من كان فى الغرفة خارجين .. تاركين اللحظة الأخيرة لها .. وحدها معه.

لقد مضت ثلاثون عاماً على هذا المشهد الجليل .. ورحل جمال عبد الناصر ساكناً .. صامتاً .. راضياً .. لتتغير الدنيا من بعده .. لكن .. خصومه لم يتركوه فى حاله حتى بعد أن أصبح فى ذمة الله .. فقد راحوا ينشرون شائعات لم تتوقف عن اغتياله .. وكان أشهر ما نسب إلى الجاسوس الإسرائيلى على العطفى الذى نُشر على لسانه كتاباً مجهولاً أدعى فيه الناشر: أنه قتل جمال عبد الناصر بمرهم خاص مسموم سربته له المخابرات الإسرائيلية قام بتدليك ساقى جمال عبد الناصر به .. وتسرب السم عبر مسام جسده وتسبب فى إصابته بسكتة قلبية مباغتة لم يشك أحد فيها.

كان على العطفى قد ذهب بقدميه إلى السفارة الإسرائيلية فى أمستردام وعرض خدماته على الموساد مقابل حصوله على «الدكتوراه» ليصبح عميداً لمعهد العلاج الطبيعى .. ولفترة طويلة كان حريصاً فى تحركاته وتصرفاته .. ولكن بعد زيارة الرئيس أنور السادات إلى القدس شعر بالاطمئنان .. ودفعه الاطمئنان إلى الاستهتار .. وهكذا .. تجرأ ودخل السفارة الإسرائيلية من بابها .. وتردد عليها أكثر من مرة .. «عينى عينك» .. وكان من السهل رصده .. ووضع تحت المراقبة .. وراحت الكاميرات الخفية تسجل لقاءاته مع بعض ضباط الموساد .. وعلمت «القاهرة» بما جرى .. وعلمت بخبر عودته إلى مصر .. فقد حدد الموعد بنفسه أثناء زيارة قام بها للسفارة المصرية فى أمستردام .. وتأكد أحد ضباط المخابرات المصرية من ذلك بنفسه .. وقرر مرافقته كظله فى الرحلة .. تمهيداً للقبض عليه فى المطار .. ولكنه لم يكن على متن الرحلة .. بل كان قد وصل إلى القاهرة قبل الموعد بحوالى ٤٨ ساعة .. أى فى اليوم الذى زار فيه السفارة المصرية وضلل من فيها.

تقرر مهاجمة بيته والقبض عليه والتقاط مزيد من الأدلة التى تدينه وتلف حبل

المشنقة على رقبته .. وكانت الخطة هى تقمص شخصية صحفيين فى مجلة اسبوعية مصورة .. يطلبون منه حديثاً صحفياً يتحدث فيه عن رحلته .. ولم يساوره الشك .. فهو معتاد على ذلك .. وكان شرط من تنكروا فى شخصية صحفيين هو أن يحبس الكلب المتوحش الذى يحرسه فى بيته .. إنه كلب شرس .. ضخم .. يمكنه افتراس ثلاثة رجال أشداء .. وكان يحتفظ به فى شقته ليضمن ألا يتسلل أحد إليها .. وقد طمأنهم قائلاً: إنه سيربط «ذلك الوحش» فى المطبخ .. وسيغلق عليه الباب إمعاناً فى الأمان .. وبهذه الكلمات حانت ساعة الصفر.

وُضعت شوارع «الزمالك» تحت السيطرة .. ودخلت قوة الضبط بيته وهى تتمالك نفسها .. وعندما تأكدت أن الكلب مربوط فى المطبخ .. أغلقوا عليه باب المكتب .. وكشفوا عن أنفسهم .. وفى دقائق كانت حرب الأعصاب بين الطرفين على أشدها .. لم يكن من السهل عليه أن يعترف .. ولم يكن من السهل على قوة الضبط أن تتوصل إلى أدوات التجسس التى يستعملها .. وبعد انتهاء الإرسال التليفزيونى دخل ابنه ليفاجأ بما يجرى .. وسأل الابن أبيه باللغة الألمانية: «هل يكلم صديقه جمال أنور السادات فى التليفون ليطلب منه التدخل؟» .. لكن كان هناك من يعرف الألمانية .. فترجم ما سمع إلى وكيل النيابة الذى قام بنزع سلك التليفون حتى لا يتدخل أحد فيفسد القضية.

وحسب ما نشرت قبل ١٢ سنة فى كتابى «عبد الناصر: أسرار المرض والاغتيال» فإن على العطفى خشى الفضيحة .. وعرض على قوة الضبط أن تتكتم الأمر .. على أن يكفر عن خطاياه بأن يصبح عميلاً مزدوجاً .. لقد طلبوا منه أن يسافر ويعيش فى إسرائيل .. وهو سيفعل ذلك ليكون عينا على العدو لصالح وطنه .. ثم راح يكشف كل ما يعرف .. ويقدم كتاب الشفرة .. وورقة الكربون البيضاء المتطورة التى يستعملها والتى كان يميزها بكتابة «البسملة» كنوع من التمويه .. فمن يقدر على الشك فى أن ورقة مكتوب عليها لفظ «الجلالة» يمكن أن تكون وسيلة سرية لمراسلات جاسوس خائن لدينه ووطنه .. وكان هناك جهاز لاسلكى .. استخدمه

فى الاستقبال فى عام ١٩٦٩ واستخدمه فى الإرسال فى عام ١٩٧١ .. وكانت هناك بطاقة سياحية .. كان يستخدمها فى وضع شرائح رفيعة جداً للميكروفيلم بين طياتها الرقيقة .. وكانت هناك عدسة خاصة لتكبير شرائح الميكروفيلم.

وفيما بعد سُئل على العطفى عن سر تماسكه وسر تدفق اعترافاته بهذا الشكل غير المتوقع .. فقال: «من قال إننى كنت متماسكاً؟ .. لقد كنت فى حالة ذهول .. حالة من الذهول جعلتنى أرفع عينى إلى السماء أطلب من الله الستر والمغفرة .. فقد كان فى نيتى أن أتوب بعد أسبوع واحد .. وقررت أن أسافر إلى بيت الله الحرام لأداء العمرة .. وغسل ذنوبى بدموعى هناك .. لكن مشيئة الله أبت إلا أن تجعل توبتى مستحيلة».

وفى اعترافاته المسهبة لم يشر على العطفى من قريب أو بعيد إلى أنه دلك ساقى جمال عبد الناصر .. ولا أنه كلف بدس السم له فى المراهم والدهانات .. وإن اعترف بأنه كان على علاقة قوية بأنور السادات .. وبأنه وضع له برنامجه الخاص بالعلاج الطبيعى .. وبأنه كان صديقه .. وبأنه كان مسموحاً له بدخول حجرة نومه .. ومن الشخصيات التى ذكرها أيضاً .. عثمان أحمد عثمان .. وسيد مرعى .. وعبد المحسن مرتجى .. وكمال حسن على .. كان يتعامل معهم دون أن يعرفوا حقيقته .. وإن كانوا بحكم طبيعتهم لم يقولوا له ما يمكن الاستفادة منه.

واعترف كذلك بأن شهادة الدكتوراه التى حصل عليها كانت مزورة .. وقد تعمدت المخابرات الإسرائيلية ذلك حتى تظل رقبته تحت سيفهم .. وحتى يستمر عجينة لينة بين أصابعهم .. يشكلونها كما يشاءون .. وبحثاً عن مزيد من الأدلة جرى تفتيش الأماكن التى كان يتردد عليها .. مكتبه فى معهد العلاج الطبيعى .. مكتبه فى النادى الأهلى .. ومكتب استيراد وتصدير يملكه شقيقه فى وسط القاهرة .. وقد قال شقيقه وهو يتلقى النبأ الصاعقة: «لقد جعل رءوسنا فى الأرض .. لو كان مرتشياً أو قاتلاً لهان الأمر .. لكن ماذا نقول وهو جاسوس؟».

وقُدم على خليل العطفى إلى المحاكمة أمام محكمة أمن دولة عسكرية عليا .. وكان رقم القضية الجنائية هو رقم (٤) لسنة ١٩٧٩ .. وحُكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة .. (٢٥) سنة .. لكن الرئيس أنور السادات (الضابط الأعلى المصدق على الأحكام) خفض الحكم إلى ١٥ سنة أشغالاً شاقة .. وكان مناحم بيجن رئيس وزراء إسرائيل الأسبق وشريك الرئيس أنور السادات فى معاهدة «كامب ديفيد» قد طلب الإفراج عن على العطفى حتى لا يؤثر سجنه على السلام بين البلدين .. ولكن أنور السادات رفض .. وقد تكرر الطلب الإسرائيلى وتكرر الرفض المصرى .. وقد أصيب على العطفى بضعف فى البصر .. ثم فقد البصر .. ثم مات فى السجن قبل أن يكمل مدة عقوبته.

والمذهل أنه لم يكن يتقاضى سوى ٢٠٠ دولار شهرياً بخلاف تذاكر السفر و ٢٠ دولاراً يومياً بدل سفر فى رحلاته الخارجية وبخلاف مكافآت أخرى كان يتقاضاها من وقت لآخر .. والمذهل أنه كان يوقع إيصالات باستلام نقود .. وقد صودرت ممتلكاته وأمواله .. صودر أكثر من مليونى جنيه منقولات وعقارات وأموال سائلة.

ثم نأتى إلى خرافة قتله جمال عبد الناصر بالتدليك .. إن كل الدلائل تثبت أن هذه الخرافة لا تستطيع أن تنهض وتصبح واقعاً فى عقول الناس إلا فى مجتمع لا يثق فى نفسه .. مجتمع يرى أنه أصبح مستباحاً يقتل حاكمه بالمساج والسونا .. أو على الأقل يمكن القول أننا أصبحنا نصدق كل ما يقال عنا دون فحص أو تفكير .. وكأن عقدة التفوق الإسرائيلى التى صدمتنا فى يونيو ١٩٦٧ لا تزال تسيطر علينا.

لقد قرأت قضية على العطفى التى ذهبت نسخة منها من محكمة أمن الدولة العليا إلى محكمة القيم لفرض الحراسة على أمواله وممتلكاته .. وحسب ما جاء فى الصفحة الثانية من حكم محكمة القيم فى الدعوى رقم (٧) لسنة (٩) قضائية فإن على العطفى قد ذهب إلى الإسرائيليين بقدميه ودون ضغط فى عام ١٩٦٩ .. يضاف إلى ذلك أن الإسرائيليين لم يتقبلوه أو يثقوا فيه أو يطمئنوا إليه أو يسيطروا عليه إلا فى عام ١٩٧١ .. فى ذلك الوقت سمحوا له باستخدام جهاز اللاسلكى فى

الإرسال.. وفى ذلك الوقت كان جمال عبد الناصر قد رحل.

لقد احتاج جمال عبد الناصر إلى التدليك والعلاج الطبيعى فى الفترات التى اشتدت فيها آلام ساقيه .. فى أواخر عام ١٩٦٦ إلى ما بعد النكسة فى منتصف عام ١٩٦٧ .. وعندما أصيب بأول جلطة فى القلب فى سبتمبر عام ١٩٦٨ عندما تسللت «سرية» برمائية إسرائيلية إلى نقطة «الزعفرانة» على شاطئ السويس الغربى واستولت على محطة رادار حديثة وصورت فيلماً للعملية عرضته على تليفزيونات العالم بعد دقائق.. وبعد هذه الجلطة التى أنهكت القلب أجبر جمال عبد الناصر على الراحة ونصحه الأطباء باحتمال آلام الساق حرصاً على القلب .. فالعلاج الطبيعى يضاعف من المجهود الذى لم يعد القلب يحتمله .. فمن غير المعقول معالجة الساق على حساب ارهاق القلب.

والمقصود .. أن جمال عبد الناصر كان قد أوقف العلاج الطبيعى قبل أن يصبح على العطفى جاسوساً .. ولو كان جمال عبد الناصر قد استعان به فى العلاج الطبيعى فإن ذلك يكون قد حدث قبل أن يخون نفسه ووطنه .. ومن ثم تكون قصة قتله جمال عبد الناصر بالسم والتدليك خرافة مثل خرافات إسرائيلية أخرى لا نهاية لها تعشش فى عقولنا .. وتحتاج أن نطردها ونتحرر منها بنفس الجرأة والعبقرية التى حررنا بها أرضنا.

وقد أنكر كل من كان قريباً من جمال عبد الناصر أن على العطفى أقترب منه أو دخل بيته .. وربما لم يسمعوا عنه .. فلم يكن فى ذلك الوقت بالشهرة التى أصبح عليها فيما بعد .. أما من كان يتولى «تدليك» جمال عبد الناصر فهو شاب كان موظفاً فى رئاسة الجمهورية اسمه «زينهم» .. فلم يكن من السهل أن تترك عملية تدليك الرئيس بلا ضوابط أو رقابة .. وقد كان «زينهم» يأتى إلى بيت جمال عبد الناصر مرتين أو ثلاث مرات أسبوعياً .. أو كان يأتى عند الطلب .. وقد أصبح «زينهم» المدلك الخاص للرئيس أنور السادات وأحد أفراد طاقم حراسته .. وكان يرافقه فى رحلاته إلى الخارج .. ولم يترك عمله فى رئاسة الجمهورية إلا بعد

حادث المنصة فى أكتوبر ١٩٨١ .. وحسب شهادة الدكتور الصاوى حبيب (الطبيب الخاص لجمال عبد الناصر) فإن «زينهم» لم يكن الوحيد الذى كان يقوم بعملية التدليك للرئيس .. فقبله قام بهذه المهمة مقدم فى القوات المسلحة اسمه «عبد اللطيف».

لقد مر على رحيل جمال عبد الناصر ٣٠ سنة .. ومر على قضية على العطفى أكثر من ٢٠ سنة .. لكن الخرافة الإسرائيلية لا تزال تجد من يرددها .. ويستعذبها .. ويعاملها معاملة الحقيقة .. ويبدو أننا نحتاج لأن نكرر ما قلناه عشرات المرات حتى «نكنس» هذه الخرافة من عقولنا .. وربما كان علينا أن نتذكر أن إسرائيل قد فوجئت بخبر وفاة جمال عبد الناصر .. فيوم الوفاة بثت وكالات الأنباء الخبر التالى من تل أبيب: «استقبلت إسرائيل نبأ وفاة جمال عبد الناصر بذهول وترك النبأ الصاعقة الحكومة الإسرائيلية فى حيرة تامة فى وقت لم يكن فيه ثمة ما يدعو للظن بأن صحة الرئيس المصرى تدعو للقلق» .. ونقل عن جولدا مائير رئيسة الحكومة الإسرائيلية فى تلك الأيام أنها قالت بعد أن عرفت أن جمال عبد الناصر قد مات: «من الذى أطلق هذه النكتة السخيفة ؟».

٢ الموساد فوق الشجرة

لا تفضل «يومبى» .. أو «بولا محمد شفيق» وشهرتها «نادية لطفى» الجلوس على الكراسى الهزازة بعيدة عن مجرى الحياة وتفاعلاتها .. انها تفضل الوسائد المصنوعة من الأعاصير .. والمحشوة بدبابيس المواجهة .. والمنقوشة بزخارف الأسلاك الشائكة.

ولا أتصور أنها تتخيل أن تلبس السترات الواقية من الرصاص .. ولا أتصور أنها تعترف ببوالص التأمين .. ولا بطمأنينة الدراويش .. لذلك .. لم أخف عليها من محاولات التشهير الإسرائيلية التى لا تتوقف ضدها .. وآخرها ما قيل هناك فى برنامج تليفزيونى عبرى .. انها كانت تعمل فى خدمة جهاز الموساد.

هكذا .. بهذه البساطة .. وبجرأة تتجاوز الوقاحة .. وكأن الذهاب إلى الموساد كالذهاب إلى مدينة الملاهى .. أو حديقة الحيوان .. لا يحتاج سوى تاكسى وتذكرة دخول وزجاجة مياه غازية وكيس من الفول السودانى للتسلية مع التسانيس .. انها تهمة تؤدى إما إلى حجرة الإنعاش .. أو إلى نيابة أمن الدولة العليا وحبل المشنقة .. أو فى أضعف الأحوال هى تهمة تؤدى إلى الازدراء العام.

وقد قامت القيامة ولم تقعد .. وانفجر الغضب ولم يهدأ .. وسخنت الدماء في العروق ولم تبرد .. خاصة وأن التهمة شملت عدداً آخر من نجمات تربعن على عرش السينما المصرية فى الستينات والسبعينات .. فى وقت كان الصراع ساخناً ملتهباً بيننا وبين اسرائيل .. مثل مريم فخر الدين .. وبرلنتى عبد الحميد .. وهند رستم.

لقد ساعدت ملامح نادية لطفى الشقراء أن تلعب دور عميلة للموساد فى فيلم «الجاسوسة» وفى فيلم «جريمة فى الحى الهادئ» ولكن .. التهمة ليست أنها مثلت دوراً على الشاشة .. وإنما لعبت دوراً فى الحقيقة .. على أن لا أحد قال لنا كيف جرى تجنيدها .. وما هى المهام التى نفذتها .. وما هو المقابل الذى تقاضته .. ولماذا سكتوا عليها كل هذه السنوات .. ولماذا قرروا فجأة أن يحرقوها .. وهل كانت تعمل بمفردها أو أنها كانت جزءاً من شبكة .. وهل ضمت هذه الشبكة زميلاتها المتهمات بنفس التهمة .. ثم والأهم أين كانت المخابرات المصرية .. ولماذا سكتت عنها وتركتها تفعل ماتشاء؟.

إن مثل هذه الاتهامات لا تطلق بهذه السذاجة .. ويسهل على شعاع رفيع من الحقيقة أن يأتى ويقطع ويحرق ويجرف أنقاض هذه التهمة .. يسهل على شعاع رفيع من الحقيقة أن يأتى ليقضى على الثعابين والدجالين ومرتزقة التشهير .. ويلغى كل أنماط الأكاذيب التى تحولت مع الزمن إلى صناديق خشبية لا تحتوى على شئ .. ولا تفعل شيئاً.

وقد خرج شعاع الضوء الرفيع الذى كشف الحقيقة من كلمات قليلة قالها رجل مخابرات مصرى سابق - هو وفيق دراز - فى اللقاء الذى دعت إليه اللجنة المصرية للتضامن لمواجهة الحملة الاسرائيلية ضد نجماتنا .. وصف الرجل هذه الحملة بأنها «تخاريف» معزولة عن العقل والواقع والمنطق .. وتتسم بالسذاجة .. وقال: «إن

المخابرات المصرية لم تكن فى يوم من الأيام موثوق بها فى برنامج تليفزيونى يبحث عن الاثارة حتى نهب ونرفض .. ويجب وضع مثل هذه الأمور فى حجمها الحقيقى منذ اللحظة الأولى .. وإلا حولت اسرائيل المثقفين السياسيين والفنانين المصريين إلى «ديسكوتيك» صاخب .. وهو ما تريده بالضبط.. أن نكون مجرد رد فعل .. أن نتحاور مع أشياء كاذبة .. خادعة .. تلقيها إسرائيل فى طريقنا كما تشاء.. فى الوقت الذى تشاء.

والحقيقة أيضاً أن نادية لطفى تستحق كل هذه الحرب الاسرائيلية.. تستحق كل هذا الصراخ من المتوحشين .. الذين لا تفرق سكاكينهم بين لحم الفنان ولحم الدجاجة.. ولا بين مشهد على الشاشة وملحق فاقد النطق فى معاهدة من معاهدات التطبيع .. فهى منذ أن نبت لها جناحان وحلقت بهما فى سماء السينما وهى تؤمن أن الفنان ليس مجرد دمية ملونة مثل العروس «باربى» يصنع الوهم فى عقول الناس ويحقق الملايين فى جيوب المنتجين .. منذ أن بدأت نادية لطفى مشوارها السينمائى فى عام ١٩٥٩ بفيلم «سلطانة» وحتى فيلمها الأخير «الأب الشرعى» فى عام ١٩٨٨ وهى تتصرف على أن الفنان هو تجسيد لوطنه .. يسافر فى أيام وأحداث وضمير وأفراح وبكاء هذا الوطن.

بغير الفن لا يوجد طموح .. لا يوجد انفلات من محدودية الغرائز والحواس .. لا يوجد ارتفاع عن قشرة الكرة الأرضية .. وشوارع الأسفلت التى نمشى عليها .. أو تمشى علينا .. إن نادية لطفى استوعبت ذلك وهى فى بلاتوهات السينما تصور أشهر أفلامها «المومياء» .. «النظارة السوداء» .. «الخطايا» .. «أبى فوق الشجرة» .. واستوعبته كذلك وهى فى بلاتوهات الواقع .. فكانت مواقفها السياسية والوطنية والقومية هى الوجه الآخر لمواقفها الفنية.

لقد سافرت إلى بيروت تحت القصف الجوى والاجتياح الأرضى فى صيف

١٩٨٢ والله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

وقد أعجبنى أنها قالت مؤخراً ببحة صوتها المميزة: «إن حرق القماش لم يعد كافياً فى المواقف السياسية» .. والمقصود بالقماش هنا «العلم الاسرائيلى» .. الذى أصبح حرقه مهدئاً سياسياً مثل أقراص «الفاليوم» .. يشعرنا بوهم أننا قد أدينا ما علينا .. صحيح أن حرق العلم الاسرائيلى هو حرق لرمز .. لكن صحيح أيضاً أن التمسك أكثر من اللازم بالرمز قد ينسينا الأصل .. خاصة أن اسرائيل تواصل تنفيذ ما تريد .. من تدمير بيروت إلى تهويد القدس .. ومن التوسع فى ضم الأراضى الى التوسع فى طرد أصحابها.

ولو سمعت نادية لطفى وهى تتكلم فى السياسة فإنك لن تتردد فى تصديقها .. انها قبل أن تقول ما عندها تعتذر لأنها غير متخصصة فى السياسة .. «ما أقوله هو وجهة نظرى الخاصة ولا أفرضها على أحد» .. «القضية بالنسبة لى محسومة .. ليس فيها فصال» .. وهى «أن نكون أو لا نكون» .. وتستطرد: «هناك فأر يأكل خريطة المنطقة» .. ونحن نتركه يفعل ما يشاء .. وقد توحش الفأر .. لأننا نكتفى بالشجب والتنديد .. يجب أن يكون التحرك أكثر إيجابية .. كيف؟ أنا لا أملك سلطة التنفيذ.. لكن هذا هو تصورى».

وربما كانت نادية لطفى من الفنانين القلائل الذين لا تختلف تصرفاتهم عن أفكارهم وآرائهم .. إنها لا تتاجر بمواقفها السياسية والوطنية.. ولا تتصرف فى الفن على غير ما تؤمن به .. لقد كانت نجمة النجوم، والمخرج شادى عبد السلام يبحث عن حل يخرجه من مأزق التسويق التجارى لفيلمه «المومياء» .. إن سيناريو الفيلم لا يحتمل وجود أبطال شباك يجذبون الجمهور إليه .. وفى الوقت نفسه يرفض المنتجون والموزعون تمويله لغياب هؤلاء النجوم .. فكان أن قبلت نادية لطفى أن تقوم بدور لا يزيد على خمس دقائق فى الفيلم .... فيلماً على مدى ٣٠ سنة من

النجومية .. لكن الفيلم الذى تندمج فيه الآن وتتوج به مشوارها الفنى الجميل .. هو فيلم كتب السيناريو له العدو الإسرائيلى .. بغطرسته ووحشيته وعنصريته ونازيته.. لقد راحت نادية لطفى تسجل فى القرى والنجوع والحوارى والأزقة شهادات الأسرى المصريين فى حربى ١٩٥٦ و ١٩٦٧ .. انها شهادات حية (تزيد على ٤٠ ساعة تسجيل بكاميرات الفيديو) عن الجرائم التى ارتكبتها العسكرية الاسرائيلية فى حق أسرانا .. بعد التصريحات التى خرجت من هناك بأنهم كانوا يدفنون هؤلاء الأسرى وهم أحياء.

ان هذه الشهادات هى عريضة الدعوى أمام المحكمة الدولية للشعوب التى تحاكم مجرمى الحروب فى كل مكان .. وفى كل زمان.. لقد حاكمت هذه المحكمة - التى عقدت فى أسبانيا - مجرمى الحرب فى البوسنة والهرسك .. وكان المفروض أن تحاكم مجرمى الحرب فى اسرائيل .. وهو ما جعل نادية لطفى تجوب الدلتا فى الصيف والحر والعرق لأسابيع طويلة لتقدم للمحكمة الأدلة بالصوت والصورة .. ولكن.. بدلاً من محاكمة جنرالات اسرائيل على ما ارتكبوه من مجازر .. انقلبت الآية وراحت اسرائيل تشهر بنادية لطفى وغيرها .. أصبح المظلوم متهماً .. والمناضل عميلاً .. والمجرم قاضياً .. والباطل حقاً .. والحق وهماً.

ولقد أسعدنى أن تدعو اللجنة المصرية للتضامن لاجتماع عام مفتوح لمناصرة - النجمة الصعيدية التى جاءت أسرتها من محافظة سوهاج - نادية لطفى التى هى عضو من أعضاء اللجنة .. وأسعدنى أكثر أن رموز مصر الثقافية والسياسية والصحفية والفنية كانت هناك .. وأسعدنى أكثر وأكثر أن كل هذه الرموز تدرك بوضوح وبلا ضباب أو غيوم أن حلم اسرائيل المزمن هو التطبيع مع المثقفين والفنانين .. وأنهم لم يحققوا لها هذا الحلم أبداً.

وكان رأيى الذى قلته علناً: ان التطبيع أصبح مهمة الموساد بدلاً من الخارجية

الاسرائيلية .. وأن الموساد يمنح ضباطه علاوة دولاراً إذا ما اغتالوا بدنياً أو معنوياً شخصية معادية لإسرائيل .. ومن ثم فإن ما حدث لنادية لطفى ولغيرها هو محاولة اغتيال فى وضح النهار .. والاغتيال المعنوى للفنان والمثقف ربما يكون أشد قسوة من اغتياله البدنى .. فالاغتيال المعنوى يفقد المصداقية ويهز الثقة ويحطم الإيمان ويجرح الشهادة.

وكان رأيى الذى قلته علناً: إن علينا أن نتعامل بحذر مع كل ما يأتى إلينا من اسرائيل .. فهو فى غالبيته نوع من الحرب النفسية والدعاية السوداء التى تستخدمها للوقيعة بين المثقفين بعضهم البعض .. تستخدمها لإشعال الحروب الأهلية بينهم .. وأتصور أنه بدلاً من أن نهاجم بعضنا البعض .. ونتبادل الكلام عن الخيانة والوطنية علينا أن نقترب ونتفاهم ونتحاور .. حتى الذى يخطئ .. لماذا لا نعيده إلى الصف .. بدلاً من إطلاق الرصاص عليه.

إن الوطنية ليست مجرد صراخ همجى نأكل فيه جثث «أهالينا» .. ليست ستاراً من الدخان نداري به عيوبنا وعوراتنا .. فالذى يحارب اسرائيل عليه ألا يقبل الفساد .. والذى يرفض التطبيع مع العدو عليه فى الوقت نفسه أن يرفض الظلم ولا يناصر الخطأ .. ان الكاسيتات السياسية والصحفية لم تعد تطرب أحداً .. وعلى مطربى «السرفيس» الذين لمعوا فى غياب الفن الجميل أن يدخلوا أقرب مدرسة لمحو الأمية الفنية والوطنية.

لقد كانت فرصة لأن نقول لنادية لطفى ولجيلها من النجوم شكراً.. ولأن نقول أن الكلمة واللوحة والصورة والقصيدة ستظل ـ رغم مسامير اسرائيل وخوازيق الموساد والأسلاك المكهربة فى سجون فلسطين والكلاب البوليسية فى جنوب لبنان ـ مثل طائر قوى يكسر بمنقاره الحاد الفولاذى كل العيون الباردة القاتلة الوقحة.

٣ هذا الرجل باع ذهب مصر

المجتمع المريض وحده هو الذى لا تشتبك فيه كراته الحمراء والبيضاء فى صراع شريف من أجل الحقيقة.

لكن .. أحياناً يكون الاشتباك نوعاً من التعصب .. أو تصلب الشرايين.. أو تصلب الرأى .. وأحياناً يكون نوعاً من «النوم فى العسل» والاستغراق فى الماضى والحنين إليه والإيمان به .. والماضى حتى لو كان ساحراً .. رائعاً .. ملوناً فهو ماض .. لا يجوز أن يقف كالشوكة فى الحلق .. أو يقف كالسيارة المشلولة .. مفككة فى منتصف الطريق .. لا هى قادرة على الحركة .. ولا غيرها قادر على المرور.

إننا فى وقت تتغير فيه الدنيا كل ساعة .. حجم المعرفة التى كانت تستوعبه البشرية فى ١٢٠ سنة .. لا مفر من استيعابه فى ١٢ سنة .. والعالم كله مشغول بما يسمى فى الغرب بفخ العولمة .. حيث يملك ٣٥٨ ملياردير ا ثروة تضاهى ما يملكه أكثر من نصف سكان الأرض .. وحيث يستحوذ ٢٠٪ من دول العالم على ٨٥٪ من الثروات والأسواق والمدخرات .. وحيث ينتظر ٨٠٪ من البشر الجوع والبطالة والتشرد والعيش فقط على الإحسان والتبرعات.

فى هذا الوقت الذى نحتاج فيه إلى حلول مبتكرة لمتاعبنا لنطفو على سطح الحياة يخرج فؤاد سراج الدين فى الذكرى الثمانين لعيد الجهاد ليتساءل: أين الذهب؟.

والذهب المقصود هو الذهب الذى تملكه مصر .. وقد قال فؤاد سراج الدين: إن الذهب حجمه ٦٥ مليون جنيه ذهبية وأنه أودعها خزانة البنك الأهلي ـ الذى كان بمثابة البنك المركزى أيضاً ـ فى عام ١٩٥١ وإن قيمة هذا الذهب الآن تزيد على ملياري جنيه .. فما هو مصير هذا الذهب؟ .. هل خرج من خزائن البنك المركزى ليدخل مغارة «على بابا»؟.

وللذهب بريقه فى مصر .. وللكلام بريقه أيضاً .. ومع أنه ليس كل ما يبرق أو يقال ذهباً فإن السكوت ليس من ذهب فى مثل هذه الأمور الشائكة التى تحمل ضغائن الماضى البعيد .. خصوصاً عندما يحمل القول غمزاً ولمزاً يشوهان سمعة حكومات متعاقبة لا تقدر الآن على الدفاع عن نفسها .. يضاف إلى هذا «حكاوى القهاوى» التى تحولت دون فحص أو تحقيق إلى عناوين رئيسية لجريدة الوفد عن انفاق الذهب فى اليمن وتهريبه إلى يوغوسلافيا أيام حكم الرئيس تيتو .. إن الوفد ـ الحزب والصحيفة ـ كانا عليهما تحقيق الاتهام قبل نشره وسماع الشهود وهم على قيد الحياة وليس مجرد التلطيش فى الظلام.

لقد تحدثت مباشرة إلى الرجل الذى باع جزءاً من ذهب مصر وهو «على نجم» المحافظ السابق للبنك المركزى .. لكنه عندما قام بهذه المهمة كان عمره ٣٠ سنة وكان فى بداية حياته العملية .. وأصل الحكاية .. أن الولايات المتحدة الأمريكية ـ للذين يتعمدون الفقدان المؤقت للذاكرة ـ قررت تجويع الشعب المصرى فمنعت شحنات القمح عنه ولم يجد الرئيس الأمريكى فى منتصف الستينات ليندون جونسون ـ الذى كان يوصف بأنه كان شخصية من أعقد الشخصيات التى دخلت وعاشت فى البيت الأبيض ـ مبرراً لإبلاغ مصر بهذا القرار فى وقت مبكر حتى تدبر احتياجاتها الضرورية من أرغفة الخبز الأسمر الذى يعيش عليه السواد الأعظم من الشعب دون «غموس» فى معظم الأحيان .. كما أن الرئيس ليندون جونسون ـ الذى كان دليلاً على صحة القول بالفصل بين السياسة والأخلاق ـ استغل فرصة انهيار محصول القمح السوفيتى وصعوبة استجابة موسكو لطلبات القمح المصرى العاجلة ليضرب ضربته متصوراً أن الشعب المصرى الجائع سيزحف على بطونه الخاوية لإسقاط نظام جمال عبد الناصر الذى كان قد خرج نهائياً من المدار الأمريكى.

وكان أن اجتمع مجلس الوزراء لمناقشة كيفية تدبير المبالغ اللازمة لشراء القمح

فوراً قبل وقوع الكارثة .. وفى سخونة المناقشة جاء اقتراح بيع جزء من الذهب قيمته ١٠ ملايين دولار تدفع كعربون لشركات القمح العالمية لتحويل شحنات من القمح تحملها سفن كانت فى عرض البحر إلى ميناء الإسكندرية .. واتخذ القرار مجلس الوزراء وصدق عليه رئيس الجمهورية جمال عبد الناصر الذى قال ـ حسب شهادة محمد حسنين هيكل الآن ـ إنه «إذا لم نستعمل الذهب الآن فمتى نستعمله ؟» .. إن كنوز الدنيا لا تساوى أى شئ أمام تجويع مواطن واحد من هذا الشعب الذى يتغنون به طوال اليوم.

وكان جمال عبد الناصر قد رفض من قبل تمويل مشاريع التنمية الاقتصادية ـ بعد حرب السويس وتراجع واشنطن عن المساعدة والمساندة ـ ببيع الآثار ورصيد الذهب وكان هناك من اقترح ذلك فى عام ١٩٥٧ بدعوى بيع الماضى لمصلحة المستقبل.

فى خريف عام ١٩٦٤ رافق على نجم سبائك الذهب وقد حملتها ٤ طائرات نقل خاصة إلى بنك «التسويات الدولية» فى بازل .. فى سويسرا وكانت هذه السبائك تزن حوالى ١٥ طناً وتمثل أقل من ١٠ ٪ من مخزون الذهب المصرى المخزون منذ عام ١٩٥٢ وكان وزنه يزيد على ١٥٠ طناً وهو وزن يزيد كثيراً على تقديرات فؤاد سراج الدين وهو وزير مالية قبل الثورة وتقديراته الآن .. ويقترب الرقم من تقديرات رئيس الحكومة د. كمال الجنزورى الذى أعلن أن الرقم هو ١٥٤ طناً وكان ذلك أمام مجلس المحافظين يوم الأربعاء ٢٥ نوفمبر ١٩٩٨ ولكن تقديرات رئيس الوزراء أيضاً أن الحكومات السابقة على ١٩٧٠ ـ عام وفاة جمال عبد الناصر ـ تصرفت فى ٧٩ طناً ليتبقى ٧٥ طناً فى خزائن البنك المركزى.

كل شهود العيان عما قبل عام ١٩٧٠ يقولون إن التصرف فى رصيد الذهب ـ المحفوظ فى خزائن البنك المركزى على هيئة قوالب فى صناديق مغلقة عليها أرقام مسجلة تسجيلاً دقيقاً فى الداخل والخارج ـ لم يزد على الكميات التى بيعت فى عام ١٩٦٤ لإنقاذ مصر من حرب التجويع الأمريكية .. وقد بيعت هذه الكميات بالأوقية ـ الأوقية حوالى ٣١ جراماً من الذهب عيار ٢٤ ـ وكان سعر الأوقية فى ذلك الوقت ٣٥ دولاراً .. وهناك خطأ شائع ـ حتى عند بعض المستويات الرسمية ـ أن جزءاً من رصيد الذهب المصرى وزعته السلطة فى العهد الناصرى على القبائل اليمنية أثناء

الحرب التى جرت هناك .. والحقيقة التى فتشت عنها وجدتها فى أرشيف جريدة «الأهرام» وعلى شرائط الميكروفيلم فيها.

لقد استضافت القاهرة الملك سعود بن عبد العزيز هو وأسرته بعد خلعه وكانت إقامته فى الطابقين العلويين من فندق هيلتون النيل قبل تدبير قصر له وقد كانت نصيحة سعود لجمال عبد الناصر .. أن الحرب النظامية التى يخوضها الجيش المصرى فى اليمن ليست مناسبة لطبيعة البلاد الجبلية القاسية وأن من الضرورى شراء القبائل أو بعضها لضمان دعمها وتجنب شرها .. وتطوع سعود واشترى من أمواله ٥ ملايين جنيه استرلينى فى صورة عملات ذهبية ليوزعها بنفسه على القبائل اليمنية .. وفى الوقت نفسه كتب شيكاً على ورقة كراسة بـ ١٥ مليون دولار صرفت من أحد البنوك الهولندية إلى مصر .. هى التى تحدث عنها الكاتب الراحل جلال الدين الحمامصى فى كتابه «حوار وراء الأسوار» واستخدمها فى الطعن فى ذمة جمال عبد الناصر وقد كان من السهل تبرئة ذمة زعيم لم يملك بيته وكان فراشه الذى ينام عليه عهدة أميرية.

وفى ٢٣ أبريل عام ١٩٦٧ سافر الملك سعود على متن طائرة خاصة إلى اليمن حملت صناديق الجنيهات الذهبية .. وفى الطائرة كان هناك من بين رجاله من وضعوا الجنيهات الذهبية فى أكياس من القطيفة بعد تقسيمها إلى ثلاث فئات هى: ١٠٠٠ و ٥٠٠ و ١٠٠ جنيه حسب قوة وأهمية القبيلة .. وكان معه على الطائرة المشير عبد الحكيم عامر وأنور السادات وشمس بدران وزير الحربية وحسن صبرى الخولى الممثل الشخصى لرئيس الجمهورية والدكتور عبد القادر حاتم الذى وصفه الخبر الرئيسى لصحيفة الأهرام فى يوم ٢٤ أبريل ١٩٦٧ بأنه المسئول عن جهاز الإعلام المختص بالرد على الدعايات الاستعمارية الخارجية .. وحسب الخبر نفسه فإن الرحلة استغرقت ٤ أيام وإن الملك سعود ألقى خطاباً من شرفة القصر الجمهورى فى منطقة «الألوف» فى صنعاء أعلن فيه اعترافه بثورة اليمن ونظامها الجمهورى .. ولم ينس الخبر أن يذكر أن الملك قد وزع عطاياه على القبائل .. ولم يكن شاهداً على ذلك عبد الحكيم عامر وأنور السادات اللذان فضلا أن تتم الصفقة بعيداً عن أى وجود رسمى لمصر .. ورغم ذلك لم تنجح عملية شراء القبائل بالذهب فى تخفيف شدة الحرب لأن الأخطر من القبائل كان المرتزقة الأجانب الذين كان عددهم ٥

آلاف محترف جاءوا من أوروبا عبر مكتب التجنيد الرئيسى فى لندن .. ولم تمر سوى عدة أسابيع على واقعة الذهب فى اليمن حتى كانت هزيمة يونيو التى فتحت بما سببته من جراح صفحة جديدة فى العلاقات المصرية - العربية .. ثم راحت الدوائر تدور .. وتدور .. وتدور.

هذه فى تصورى وتحرياتى أصدق الوقائع عن الذهب فى مصر.. وفى خزانة محافظ البنك المركزى إسماعيل حسن ما يمكن أن يؤيدنى.. ففى هذه الخزانة أوراق ومستندات دامغة أقوى من أى إدعاء.

لكن .. هناك حقائق إقتصادية يجب إضافتها إلى الصورة السياسية وقد راجعت بعضها مع اثنين من أشهر رجال البنوك فى مصر هما محمود عبد العزيز وعصام الأحمدى .. وكنا قد التقينا مصادفة خلال نهار فى الواحات - التى كانت معتقلاً للسياسيين - بدعوة من وزير السياحة د. ممدوح البلتاجى لافتتاح أحد مشروعات السياحة هناك .. من هذه الحقائق .. أن العالم لم يعد - منذ أكثر من نصف قرن - يتعامل بقاعدة الذهب .. وأصبحت قوة العملة فى أى دولة تقاس بقوة الإنتاج وقدرة الخدمات .. وأن البنوك التجارية فى مصر لا تفضل التعامل مع الذهب لتخوفها من الخسارة الفادحة فى حالة انخفاض سعره العالمى كما حدث خلال عام ١٩٩٧ .. وقد ترتب على هذا الانخفاض - الذى وصفه البعض بالانهيار - أن خسر تجار الذهب فى مصر ٤٠ ٪ من قيمة ما يملكون .. ويرى البنك المركزى أن البنوك التجارية ليس لديها الخبرة الكافية للتعامل مع الذهب عالمياً .. حيث توجد فروق فى أسعار الذهب الخام عالمياً ما بين ٦٠٠ - ٧٠٠ دولار فى الكيلو الواحد الذى يقترب سعره من ٣٠ ألف جنيه فى العادة .. لقد تراجع سعر أوقية الذهب عالمياً إلى ٢٩٩ دولاراً فى خريف ١٩٩٧ مقابل ٣٨٠ دولاراً خلال الفترة نفسها فى عام ١٩٩٦ .. وكان سبب هذا الهبوط الحاد أن سويسرا - التى تعيش على الذهب وبنت سمعتها عليه - طرحت ٥٤ ٪ من احتياطيا الذهبية فى الأسواق .. وسارعت روسيا إلى بيع ٢٥٠ طناً من مخزونها للطفو فوق سطح الأزمة الاقتصادية الحادة التى تعرضت لها .. إن الدول مثل الأفراد .. يعشقون الذهب فى الوفرة .. لكنهم لا يترددون فى بيعه فى الأزمة .. ففى الأعماق دائماً .. أن الذهب هو سند نجده تحت أيدينا فى وقت الشدة .. فلا حاجة لنا لتوابيت صفراء أحياناً تبقى هى ونموت

نحن .. وتقدر أوزان السبائك الذهبية المتداولة فى الأسواق المصرية بحوالى ١٠٥ أطنان .. وكان الرقم فى عام ١٩٩٥ لا يزيد على ١١ طناً .. وهو ما يعنى قفزة هائلة فى الاستيراد صاحبتها زيادة أخرى فى التصنيع .. من ٦٩,٢ طن عام ١٩٩٦ إلى ١٢٢,٢ طن عام ١٩٩٧ رغم أن الضرائب المفروضة على المشغولات تصل إلى ٤٠ ٪ وهى مصدر شكوى لتجار الذهب الذين يعملون فى ٢٠ ألف ورشة ومحل .. ومن ثم يبدو الرقم الذى يتحدث عنه فؤاد سراج الدين - وهو ما يساوى مليارى جنيه بسعر الآن - متواضعاً .. بل إن هذا الرقم أقل من نصف الديون المعدومة فى البنوك التجارية أخيراً (حوالى ٥ مليارات) .. وأحياناً يقدر البعض الديون المعدومة بحوالى ٢٥ ملياراً .. ومن ثم يبدو رقم الباشا شديد التواضع بل إن هذا الرقم أقل من ديون رجل أعمال واحد من هؤلاء الذين توسعت البنوك فى إقراضهم .. ولو عجز الواحد منهم عن السداد (لا قدر الله) فقد يسافر إلى الخارج بدون تذكرة عودة .. وهذه هى القضية التى تستحق - رغم كل الذين يقولون لنا اطمئنوا - الانتباه والاهتمام .. ولسنا فى حاجة أيضاً للقول إن الأرقام التى يتحدث عنها رئيس حزب الوفد لا تقارن بعائد بيع شركات القطاع العام ومصانعه التى أقيمت فى السنوات التى يصورونها على أنها كانت منكوبة .. وقد بشرنا وزير الصناعة المهندس سليمان رضا بوجود مناجم للذهب على مساحة تزيد على ٧ آلاف كيلو متر فى الصحراء الشرقية وأنه خلال خمس سنوات ستنتج خمسة ملايين أوقية قيمتها مليار و ٥٠٠ مليون دولار أى أكثر من ضعف الرقم الذى يتحدث عنه فؤاد سراج الدين الذى نحلم بأن نستفيد من خبرته الماضية فى معالجة ولو مشكلة واحدة من مشكلاتنا المزمنة .. البطالة أو الأمية مثلاً .. إن الماضى فى البداية والنهاية - مهما يكن جميلاً - هو عصير خشب .. ونحن من أنصار النظر إلى الماضى فى غضب ونتطلع إلى المستقبل فى فرح .. والماضى هو كل ما يمر علينا حتى اللحظة التى نعيشها .. والذين ينتظرون عودة الماضى هم ينتظرون قطارات غادرت المحطة التى يقفون عليها منذ سنوات طويلة .. ولن تأتى مرة أخرى.

٤ هل قتلت إسرائيل عبد الناصر بالتدليك؟

في ١٥ يناير عام ١٩٨٢ كان حزب التجمع يحتفل كالعادة بذكرى ميلاد جمال عبد الناصر عندما فجر شيخ المحامين في ذلك الوقت «عبد العزيز الشوربجي» مفاجأة جنائية وسياسية أصابت كل الحضور بالذهول .. وربما الشلل .. التفت الرجل - الذي كان صوته قوياً متماسكاً ورغم تجاوزه السبعين من عمره - إلى خالد محيي الدين رئيس الحزب ثم قال: «إن في عنق محبي جمال عبد الناصر أمانة لا يمكن التفريط فيها .. أمانة الكشف عن قاتله»!.

وقبل أن تتراقص علامات الاستفهام والدهشة أمام عيون الحاضرين أضاف المحامي الشهير: «لقد اعترف لي الجاسوس الإسرائيلي الذي يدعى (علي العطفي) بنفسه ونحن في السجن أنه (قتل) جمال عبد الناصر بالسم البطيء عندما كان يدلك له ساقيه أثناء مرضه بمراهم ودهانات خاصة تتسلل إلى الدورة الدموية فتفسدها دون أن يشك أحد في وجود شبهة جنائية» .

كان «عبد العزيز الشوربجي» قد اعتقل ضمن ١٥٣٦ شخصاً من مختلف القوى والمذاهب السياسية والدينية فيما عرف باعتقالات «سبتمبر» عام ١٩٨١ .. وفي

السجن وجد الدكتور «على العطفى» يتقرب منه أثناء ساعة «التمشية» .. ويحكى له جريمة اغتيال جمال عبد الناصر بالتدليك.

جاء ما قاله «عبد العزيز الشوربجى» على الجرح تماماً .. وعزف على وتر كان مشدوداً .. هل اغتيل جمال عبد الناصر أم أن رحيله كان نتيجة طبيعية لأمراض السكر والضغط والقلب وتصلب الشرايين التى كان يعانى منها؟ .. وبرغم مرور ٣٠ سنة على الوفاة فإن السؤال الصعب لا يزال سؤالاً بلا إجابة .. أما سبب صعوبة السؤال فهو كثرة الروايات التى نشرت فى الغرب عن محاولات اغتياله .. ففى كتاب صائد «الجواسيس» الذى ألفه رجل المخابرات البريطانى الشهير «بيتر رايت»: أنهم حاولوا اغتيال جمال عبد الناصر بوضع عقار الهلوسة أو «غاز الأعصاب» فى جهاز التكييف بواسطة أحد العملاء المقربين .. وفى كتاب عن «الألعاب القذرة» للمخابرات المركزية (الأمريكية) أنهم حاولوا التخلص منه بحقنة أنسولين مسمومة.

وقبل ذلك نجح الإخوان المسلمون فى تجنيد الحارس الخاص لجمال عبد الناصر «لإطلاق الرصاص عليه وهو خارج من مكتبه» .. وقد انهار «اسماعيل الفيومى» قبل ساعة التنفيذ بدقائق عندما سأله جمال عبد الناصر عن صحته وأولاده «وعاملين إيه فى الدراسة» .. ثم اعترف بالمؤامرة كاملة .. فسلمه جمال عبد الناصر إلى سلطات التحقيق .. وبعد المحاكمة صدر الحكم بإعدامه .. ونفذ الحكم.

كان ما نشر عن محاولات التخلص من جمال عبد الناصر فى الداخل وفى الخارج قد جعل رواية الجاسوس الإسرائيلى «على العطفى» قابلة للتصديق .. وضاعف من ذلك أن كتاباً مجهول المؤلف نشر فى بيروت - أغلب الظن أن المخابرات الإسرائيلية كانت وراءه - جاء فيه: «أن جمال عبد الناصر مات بطريقة غير طبيعية بتخطيط من دولة أجنبية .. وألقى القبض على الدكتور على العطفى أخصائى العلاج الطبيعى بالنادى الأهلى بتهمة تنفيذ هذه الخطة البشعة».

وفى الكتاب أيضاً: «أن الدكتور على العطفى كان متزوجاً من سيدة إيطالية اشتهرت فى الأوساط الرياضية باسم «لوليتا» كانت دائمة السفر إلى روما لزيارة أسرتها .. وهناك نجحت المخابرات الإسرائيلية فى تجنيدها وسلمتها مرهماً خاصاً ليستخدمه زوجها فى تدليك ساقى جمال عبد الناصر ـ بسبب مضاعفات مرض السكر ـ وقد تشربت مسامه المرهم الممزوج بالسم فأدى إلى إصابة الرئيس الراحل بأزمة قلبية أنهت حياته».

لقد أصيب جمال عبد الناصر بمرض السكر فى عام ١٩٥٨ على أثر مفاوضات شاقة جرت بينه وبين الاتحاد السوفيتى فور قيام ثورة «عبد الكريم قاسم» فى العراق حاول خلالها إقناع رئيس الوزراء السوفيتى الأسبق «نيكيتا خروتشوف» بدعم الثورة .. وقد توحش السكر فى جسده ورُفع راية الخطر فى عام ١٩٦٤ عندما هاجمته مضاعفاته وهو يزور ـ هو ونيكيتا خروتشوف أيضاً ـ مشروع مديرية التحرير ثم راح السكر يعربد فى جسده حتى وصل إلى مرحلة الأستون .. وهى مرحلة عدم احتراق الدهون وصعوبة تخلص الجسم من سموم التمثيل الغذائى المضطرب .. ثم أدى السكر إلى تصلب الشرايين .. خاصة شرايين الساقين .. وهو يؤدى إلى صعوبة فى المشى والإحساس بالتعب عند أقل مجهود .. وكان أن قرر الأطباء السوفيت علاجه فى مصحة «تسخالطوبو» .. وبدأ الحديث عن العلاج الطّبيعى .. وكان أن جاءت الفرصة لرواية اغتياله بالسم عن طريق التدليك لتجد من يسمعها .. ويصدقها.

وقد حاولت جاهداً أن أفك طلاسم هذا اللغز .. وأتصور أننى حققت نجاحاً مقبولاً فى ذلك .. إن على العطفى ـ الذى ولد فى النصف الثانى من العشرينيات فى أسرة متواضعة ـ لم يحصل إلا على الشهادة الإعدادية .. وقد احترف «التدليك» و «المساج» وهى حرفة تعلمها على يد الأجانب الذين هاجروا من مصر خوفاً من التأميم والمصادرة .. ومن ثم لم يتردد على العطفى فى أن يقول إنه «الأب الشرعى

للتدليك والعلاج الطبيعى فى مصر .. ولأنه برع فى حرفته فقد تهافتت عليه الأندية الرياضية الشهيرة .. وانتهى به المطاف إلى النادى «الأهلى» .. ولأنه برع فى إخفاء مؤهلاته فقد كان يعامل معاملة «الخبير» و «الإخصائى» فى علم لم يكن معروفاً لدينا هو علم العلاج الطبيعى والطب الرياضى وطب الملاعب .. ولأنه برع فى إظهار نفسه بمظهر لائق فقد نجح فى فرض نفسه على المجتمعات الراقية كواحد منها .. ودعم ذلك بعلاقات مع بعض أصحاب الشأن أضافت إليه الكثير من الوجود .. وجعلت منه شخصية مرموقة لها نفوذ ولها اتصالات.

كل ذلك جعله ينضم إلى قائمة مدربى العلاج الطبيعى الذى بدأت دراسته الأكاديمية فى مصر عام ١٩٥٤ تحت إشراف منظمة الصحة العالمية .. وكانت الدفعة الأولى التى درسته من خريجى وخريجات معاهد التربية الرياضية .. ثم بدأت البعثات الخارجية إلى الولايات المتحدة وبريطانيا والاتحاد السوفيتى وألمانيا الغربية .. وفى عام ١٩٥٩ عاد المبعوثون يحملون شهادتهم العالية .. الدكتوراه .. فى تخصصات العلاج الطبيعى المختلفة .. وشجع ذلك على إنشاء معهد عال للعلاج الطبيعى استقل رسمياً فى عام ١٩٦٩ .. وساور على العطفى قلق شديد أن يبعدوه عن عمادة المعهد لتواضع مؤهلاته العلمية فى مواجهة حملة الدكتوراه الشبان الذين سحبوا السجادة من تحت قدميه .. وسلمت عمادة المعهد بالفعل إلى سيدة هى «فوقية عزب سليم» التى بقيت فى منصبها حتى عام ١٩٧٢ ثم سافرت إلى الكويت .. وهو ما جعل على العطفى يشعر بأكبر صدمة فى حياته .. ولم يكن من الممكن تجاوز هذه الصدمة إلا بالحصول على الدكتوراه بأى ثمن .. وكان هذا الثمن للأسف هو خيانة الوطن.

لقد ذهب بقدميه إلى السفارة الإسرائيلية فى العاصمة الهولندية أمستردام .. وقدم نفسه إلى مسئول الأمن بالسفارة وعرض عليه التجسس لحسابهم على بلاده ..

وتعرض لاختبارات صارمة استمرت أياماً .. وتعرض لجهاز كشف الكذب .. ووضع تحت المراقبة حتى وجدوه صالحاً يمكن الوثوق به والاطمئنان إليه .. بل أنهم اعتبروه جاسوساً مثالياً .. فهو شخصية على علاقة وثيقة بكل رموز السلطة والمجتمع فى مصر .. ويصعب الشك فيه .. ثم إن كل ما كان يطلبه هو الحصول على الدكتوراه بأى ثمن .. وكان الطلب سهلاً بالنسبة للمخابرات الإسرائيلية .. كما أنه كان مناسباً لها أيضاً .. فالحصول على الدكتوراه يحتاج لعدة سنوات يمكن خلالها أن يقدم إلى إسرائيل الكثير.

اختار على العطفى سفارة إسرائيل فى أمستردام .. لأن زوجته هولندية وليست إيطالية كما قيل فيما بعد .. كان قد سافر إلى العاصمة الهولندية فى نهاية الخمسينيات هو ومدرب الكرة المعروف عبده صالح الوحش .. وفى هذه الزيارة تعرفا على فتاتين هولنديتين .. وكان أن تزوج على العطفى «آنا ماريا جوهانس» .. وكان أن تزوج عبده صالح الوحش صديقتها .. ولأن زوجته هولندية فإن السفر إلى أمستردام لا يثير الشك ولا الشبهات .. وهكذا استخدم جنسية زوجته غطاء لاتصالاته بالإسرائيليين .. لكن .. للإنصاف فإن الزوجة لم تكن تعرف ما يفعله زوجها حتى قبض عليه .. وسيبدو مثيراً للدهشة أن نقول أنها كانت تعشق تراب هذا الوطن أكثر منه .. وقد عاشت معه فى القاهرة .. فى الزمالك .. فى شارع «بهجت على» فى عمارة يملكها .. وكان مسكنه عبارة عن شقتين أزال الجدار بينهما .. وفى مسكنه خصص مساحة كبيرة لحجرة مكتب غطى جدرانها بمكتبة صخمة تتسع لأكثر من ١٠ آلاف كتاب.

والمذهل أنه علق على مدخل العمارة عبارة «الله أكبر» .. كما أنه كان يصلى الجمعة بانتظام فى المسجد الذى يقع على بعد خطوات من منزله .. وكان يذهب إلى النادى «الأهلى» مبكراً ويظل فيه حتى يصلى صلاة الظهر ثم يغادره عائداً إلى بيته .. وفى حجرة مكتبه كان يضع عدة مصاحف مختلفة الأحجام لم يجد حرجاً

فى الاحتفاظ بها .. وعندما قبض عليه أصيبت زوجته بانهيار عصبى .. وسألت أقرب من وجدته أمامها: «هل صحيح أن زوجى جاسوس؟ .. ثم دخلت حجرة مكتبه وقالت وحالة الهيستيريا لم تفارقها: «لو كان جاسوساً فما الذى كان يفعله بالمصحف؟ .. هل كان يضحك علينا؟ .. هل كان يسخر منا؟ .. لقد عشنا معه نكتة .. لكنها نكتة سخيفة .. تدمى ولا تضحك».

وقد حاول زوجها أن يهدئ من روعها ويهون عليها ما فوجئت به .. فقال لها وهو يحاول ضمها وتقبيلها: «إن ما يجرى سوء فهم سرعان ما يزول» .. لكنها أشاحت بوجهها .. ورفضت أن يقترب منها .. وضربته بكوعها فى صدره .. وفيما بعد عندما سمح له بالاتصال بها تليفونياً لم ترد عليه .. لقد احتقرته .. ولفظته .. وندمت على السنوات التى عاشتها معه .. ولأنها أحبت مصر .. وعشقت ناسها .. فقد بقيت فيها .. ولأنها سيدة موهوبة .. فقد راحت تعمل معلمة فى مدرسة من مدارس اللغات فى الزمالك.

وقد أصرت على البقاء فى مصر لتربية ولديها اللذين كان أكبرهما فى ذلك الوقت طالباً فى كلية الهندسة .. وكان الآخر تلميذاً فى الشهادة الإعدادية .. وقد نشر الأبن الأكبر إعلاناً فى صحيفة يومية تبرأ فيه من والده .. واستنكر خيانته للجميع.

وقد حاول الإسرائيليون الانتقام من الزوجة فنشروا أنها إيطالية وليست هولندية .. وأن اسمها لوليتا وليس آنا .. ونشروا أنها هى التى كانت تحضر له السم .. السم الذى قيل إنه دلك به ساقى جمال عبد الناصر لقتله .. وكان المقصود مما نشر هو الإشارة إلى أنها أخطر من زوجها .. والإيحاء بأنها بارعة فى تضليل المصريين .. وأن دموعها كانت دموع التماسيح .. وكان ذلك جزءاً من كذبة أكبر.

لم يكن من السهل على الإسرائيليين الوثوق به بسرعة ولا بسهولة .. فالجواسيس

لا يطرقون الأبواب بأنفسهم كما فعل هو .. إن فترة اختبار العميل المتطوع بنفسه تطول ربما لسنوات .. وقد قال على العطفى فيما بعد فى التحقيقات إن فترة إثبات «حسن النية» تجاوزت العام ونصف العام .. وكادت تقترب من العامين .. أما فترة الدكتوراه المزيفة التى حصل عليها فوصلت إلى ثلاثة أعوام .. فقد أصبح حاملاً للقب «دكتور» فى عام ١٩٧٢ .. وهو العام الذى تولى فيه أيضاً عمادة المعهد العالى للعلاج الطبيعى .. واستمر فى منصبه حتى عام ١٩٧٧ .. وكان قد أزاح من طريقه عالماً فى تخصصه - كان منصب العميد من حقه - هو الدكتور يحيى أمين البطاوى الذى أصبح عميداً فيما بعد مرتين .. إن إحساسه بالبطحة التى على رأسه - وفى قلبه أيضاً - جعله يكره الكفاءات وأصحاب الشهادات العليا .. ولم يتوقف عن محاولات التخلص منهم أولاً بأول .. أو لعل ذلك كان من صميم عمله كجاسوس .. فليس هناك أمنية لجهاز مخابرات معاد أكبر من تعيين الفاشلين وأنصاف المواهب فى المواقع القيادية .. وإبعاد أهل الخبرة عنها.

وخلال فترة حصوله على الدكتوراه «الملعونة» كان دائم السفر بحجة البحث والدراسة .. وخلال تلك الفترة أيضاً نجح فى توطيد علاقاته بشخصيات مهمة يصاب المرء بالصاعقة لو عرف أسماءها .. وكان موضع ثقة هذه الشخصيات .. وعندما قبض عليه لم يصدق الرئيس أنور السادات أن الخبر صحيح .. ولم يصدق غيره ممن كانت مقدرات الوطن بين أيديهم .. فقد كان الجميع يتكلمون وهم تحت التدليك .. أما هو فقد كانت تعليمات الموساد إليه أن يسمع أكثر مما يتكلم .. وأن يشارك فى الحوار بالقدر الذى يسمح بإثارة الجدل .. فالجدل يعنى الاختلاف .. والاختلاف يعنى أن تكشف كل الأطراف ما فى أعماقها.

ولا يمكن أن ننكر أن على العطفى كان يتمتع بذكاء فطرى حاد .. لكنه كان بخيلاً بدرجة لا يمكن تصورها كذلك .. فقد لاحظ الرياضيون الذين رافقوه فى الرحلات إلى الخارج أنه يحتفظ بمناديل الورق .. وأكياس الملح والفلفل .. وأقلام

الحبر الجاف .. وغيرها من الأشياء البسيطة الرخيصة .. وامتد الحرص من المال إلى التجسس .. كان سر نجاحه فى مهمته القذرة أنه كان شديد الاهتمام بالتفاصيل الصغيرة .. كان يركب سيارته ويظل يلف بها حتى يطمئن إلى أن لا أحد يراقبه .. وفى كل مرة كان يلقى برسائله إلى الموساد فى صندوق بريد يقع فى منطقة مختلفة .. ولم تكن حقائبه تفتح .. فقد كان يدخل ويخرج من قاعة كبار الزوار .. لكن .. هذا الحرص تحول لأسباب متنوعة إلى لا مبالاة .. وربما تحول إلى استهتار .. وكان ذلك من حسن حظنا .. فقد تمكن الإسرائيليون من السيطرة الكاملة على قواه العقلية فبات مقتنعاً بأنهم أكبر وأقوى من أن يسقط لهم جاسوس .. وأنهم قادرون على حمايته ورعايته والتقاطه من أى مكان .. حتى فى غياهب السجون .. وكان هذا الاقتناع بداية السقوط.

وقد ضاعف من إحساسه بالاسترخاء ما جرى من تقارب ـ وصل إلى ذروته بزيارة الرئيس السادات إلى القدس فى نوفمبر ١٩٧٧ ـ بين مصر وإسرائيل .. ثم مع تقدم مفاوضات الصلح بين البلدين وصل الاسترخاء إلى استهتار .. وهكذا .. لم يعد يقوم بجولة السيارة المعتادة قبل أن يلقى برسائله .. أصبح يلقيها فى أقرب صندوق بريد إلى بيته .. وكان يضع فى حقائبه أثناء السفر ما قد يكشفه ويدينه كجاسوس.

وكان لابد أن يسقط .. هذه هى النهاية المتوقعة .. لكن .. كيف سقط ؟ .. وهل صحيح أنه قتل جمال عبد الناصر بالتدليك ؟ .. الإجابة تحتاج لمساحة لم تعد متاحة إلا فى السبت المقبل.

٥ امـــرأة عـــين الصــــباح

كان الجو مثاليا لزيارة «متحف التشريح» فى باريس .. الشمس ضائعة فى متاهات الضباب الكثيف .. الريح تعصف بكل ما يصادفها .. تعزف صفيراً حاداً يكاد يصم الآذان .. والليل يتعجل الهبوط رغم أننا لم نتجاوز منتصف النهار .. مشهد لا تراه إلا فى أفلام الرعب التى توقف القلب .. وقد تضاعف الاحساس بالإثارة بمجرد أن اقتربنا من مبنى المتحف .. فهو اشبه بمشرحة «قصر العينى» .. ويبدو بارداً وحيداً فى غابة مهملة موحشة لا تغرى أحداً بالاقتراب.

لست من هواة أفلام الرعب .. ولم أكن يوما من المعجبين بأشهر مخرجيها .. «الفريد هيتشكوك» .. ولست من مرتادى متاحف «الشمع» التى تخلد القتلة والسفاحين على طريقة «ريا وسكينة» .. لكننى تحمست لزيارة «متحف التشريح» فى باريس لرؤية قطعة واحدة فقط. رأس أشهر وأجمل جاسوسة خلقها الله .. «ماتا هارى» .. لم أتوقف عند ١٠٠ رأس أخرى مقطوعة ومحنطة لقتلة أعدموا بالمقصلة .. ولم أتوقف عند نحو ٦٠٠٠ تذكار من أجساد عتاة المجرمين .. كان هدفى الوحيد رأس «ماتا هارى» . الأكثر شهرة فى العالم بعد رأس «نفرتيتى» . فقد قرأت كثيراً عنها .. وتمنيت أن أراها.

كان الطابق طويلاً أمام «الفاترينة» الخشبية المحلاة بالذهب والتى تضم رأس «ماتاهارى».

ورغم أن الفرصة لم تكن سانحة إلا لإلقاء نظرة خاطفة عليها فإننى لن انسى ما حييت شعرها الأحمر القصير .. ووجهها الذى بدا لى ـ رغم الموت والتحنيط ـ أشبه بفراشة ربيعية .. أشبة ببئر مياه جوفية .. أشبه بوجه ساحر لامرأة بدوية .. وقد قفزت ملامحها واضحة فى ذاكرتى عندما قرأت فى «الأهرام» عمودا لـ «نبيل عمر» عن اختفاء رأسها .. فمن الذى سرق الرأس ؟.. هل سرقه مهووس بها ؟.. أم واحد من أحفادها ؟.. أم متحف أخر على طراز هذا المتحف الغريب ؟.. إنه سؤال لا يشغل فرنسا وحدها وإنما يشغل دولا كثيرة غيرها .. فقد كانت «ماتا هارى» جاسوسة متعددة الجنسيات.

فى التاريخ .. إن المرأة باعت جسدها لتفك عقد الرجل «الجنسية» فكانت الدعارة أقدم مهنة على وجه الأرض .. ثم باعت جسدها لتفك عقد الرجل «السياسية» و «العسكرية» فكانت الجاسوسية هى المهنة الثانية.

فى الإصحاح الثانى من سفر «يوشع» بالكتاب المقدس أن «يوشع بن نون» أرسل جاسوسين سراً إلى «أريحا» فى فلسطين ليكتشفا الأرض المقدسة قبل غزوها .. وأرشدهما عن بيت غانية اسمها «رحاب» فذهبا إليها .. وناما فى فراشها .. وعرف الملك بأمرهما فأمرها أن تسلمهما .. لكنها رفضت .. وخبأتهما فى الظلام تحت أكوام الحطب فوق السطح .. ثم أنزلتهما بحبل .. ونصحتهما بالاختباء فى الجبل ثلاثة أيام قبل أن يغادرا «أريحا» .. ورداً للجميل طلباً منها أن تضع علامة حمراء على بيتها حتى لا يدخله «يوشع بن نون» وجنوده ويقتلوا من فيه.

وفى الإصحاح السادس من السفر نفسه، أن «يوشع بن نون» وجنوده قتلوا بحد السيف «كل ما فى المدينة من رجل وامرأة وطفل وحتى البقر والغنم والحمير» ..

لذلك فإن «يوشع بن نون» هو البطل المثالى الذى يؤمن به الإسرائيليون ويقدسونه ويخلدونه ويمشون على طريقة .. وقد طلب من المرأة الغانية «رحاب» أن تخرج هى وأبوها وأمها وأخوتها وكل ما لها قبل أن يحرقوا المدينة بكل ما فيها .. وقد تحولت هى الأخرى فيما بعد إلى إمراة شهيرة ومقدسة فى إسرائيل.

ولو كانت «رحاب» الغانية هى الأقدم فى مهنة التجسس فإن «ماتا هارى» هى الأكثر شهرة على الإطلاق .. إنها الأنثى النموذج فى هذا العالم الخفى الملئ بالغموض والأسرار .. اسمها الحقيقى «مرجريت جرترود» .. وهى هولندية المولد والأصل .. ولدت فى عام ١٨٧٦ .. وعندما غادرت «امستردام» إلى «باريس» فى عام ١٩٠٣ تركت وراءها طفلة أنجبتها من رجل أسيوى .. لا يزيد عمرها على ثلاث سنوات .. اسمها «باندا ماكلويد» .. أو «زهرة عباد الشمس».

و «مرجريت جرترود» هى التى أطلقت على نفسها «ماتا هارى» .. وهو اسم ملاوى .. معناه «عين الصباح» .. أو «عين فجر جديد» .. فالرجال كانوا يرون النهار فى عز الليل إذا ما اقتربت منهم .. وقد كانت تحترف الرقص الوحشى .. الشهوانى .. تحرك أساورها المصنوعة من الفضة والياقوت الأحمر .. تتركها ترتطم ببعضها البعض .. فتخرج نغمات لحن خاص مميز .. ويمتزج عطرها النفاذ المستخرج من زيوت الشرق بالموسيقى الاستوائية الصاخبة .. فتخرج عيون الرجال من محاجرها .. وهؤلاء الرجال زعماء ووزراء وجنرالات .. وما أن تنتهى الرقصة حتى يسارعوا بإلقاء المجوهرات والأسرار السياسية والعسكرية. مثل قرابين المعابد المقدسة - تحت قدميها.

فى «باريس» فشل زواجها من ضابط اسكتلندى .. ووقعت فى براثن ضابط مخابرات ألمانى هو «رودلف ماكلويد» .. أحبته .. منحته نفسها .. لكنه جندها واستغل جسدها لصالح بلاده .. فبدأت تعمل لحسابه .. ودخل فراشها كبار قادة

بريطانيا وفرنسا .. وخرجوا وقد أفرغوا ما فى جعبتهم من خبايا وأسرار .. إنها شهريار الأنثى .. لها فى كل ليلة رجل مختلف .. تعريه من حياته وأسراره .. وفى اليوم التالى يلبس ثيابا من الرياح والعواصف .. كان كل جنرال أو سياسى أو رجل سلطة تعرفه مستعداً أن ينقل إليها البحار والغابات من أماكنها .. مستعداً أن يبيع العالم مقابل درهم واحد من أنوثتها .. مقابل رائحة البخور والكافور والبهار فى ثيابها .. وكانت تتركهم واحداً بعد الآخر بعد أن أكلهم الغبار.

والرجل الوحيد الذى أحبته إلى درجة الجنون وكرهته إلى درجة الكفر، كان الرجل الذى حولها من عاشقة إلى جاسوسة .. قالت: إنها اقتسمت معه رغيفاً نصفه حب ونصفه الآخر كره .. وقالت: إن هذا الطراز المدرب من الرجال لا قلب ولا ضمير له .. وهو يخفى أمراضه النفسية تحت شعارات وطنية زائفة .. إنه أنانى .. بارد .. خانع للسلطة والقوة .. شديد القسوة لا يرحم اذا ما واتته الفرصة للبطش بالضعفاء .. مغامر ليس لديه ما يفقده بعد أن فقد أعز ما يملك الإنسان .. كرامته .. ليست المرأة بالنسبة له سيارة «ملاكى» وانما سيارة «تاكسى» يؤجرها لمن يشاء .. وهو من النوع الذى يصفه علماء النفس بالسيكوباتى .. أى الشخص الذى لا يهتز ضميره وهو يرتكب جرائمه .. مهما كانت هذه الجرائم قاسية وفاسدة .. إن وراء كل عاهرة وجاسوسة رجلا من هذا الطراز.

وفى متحف «التشريح» وضعوا صورته إلى جانب ما قالته عنه .. ووضعوا صورة ابنتها «باندا ماكلويد» التى لقيت نفس مصيرها .. الإعدام ربما بالرصاص.. فعندما انكشف أمر «ماتا هارى» قبض عليها وحاكموها بتهمة الخيانة العظمى، وفى ساعات حكموا عليها بالموت .. وفى ١٥ أكتوبر عام ٩١٧ قادوها إلى غابة «ونسين» .. وهناك فتحوا النار عليها .. وبعد أن سقطت مضرجة فى دمائها قطعوا رأسها وسلموه لمتحف «التشريح» لتحنيطه .. ولدراسته .. لقد أرادوا أن يعرفوا سرها من خلايا المخ والجسد .. كما يفعلون عادة مع كل ما يرد اليهم من جثث لعتاة المجرمين

والقتلة .. وفى التقرير الطبى والنفسى المكتوب عنها: أن غددها وهرموناتها الأنثوية يندر أن توجد في امرأة .. ولو عاشت مائة سنة فانها ستظل قادرة على أن تعبر عن نفسها كامرأة. أما خلايا المخ - وهنا المفاجأة - فهى لا تنم عن ذكاء غير عادى .. بل يمكن القول أن ذكاءها كان أقل من المتوسط. وهو أمر شائع بين فتيات الهوى .. سواء عملت لصالحها أو لصالح جهاز مخابرات.

لم تعرف ابنتها الوحيدة «باندا» ما جرى لأمها حتى بلغت العشرين من عمرها.. لقد ظلت «باندا» فى مدينة «جاوة» مع أبيها الأندونيسى .. وزوجته .. كانت باندا تجمع بين نضارة الزهور فى هولندا .. وطن أمها .. وحيوية الشمس فى اندونيسيا .. وطن أبيها .. فاستحقت أن توصف بزهرة الشمس.

تزوجت «باندا» من موظف كبير فى الحكومة الأندونيسية .. سرعان ما توفى بالحمى الاستوائية .. فكان أن انغمست فى الحياة الاجتماعية والصالونات الأدبية .. وعندما احتل اليابانيون اندونيسيا طردوا منها الهولنديين طلب منها ضابط فى المخابرات اليابانية المعروفة باسم «الكمبتاى» أن تتعاون معهم مستغلة جمالها وصالونها الأدبى والفنى .. وهددها بالقتل .. وبكشف حقيقة أمها على الملأ .. فأستسلمت له .. لكنها فى الوقت نفسه قررت الانتقام منه، ووجدت فى صديقها وحبيبها الكولونيل الشاب «عبد الله» شريكا لها فى الانتقام من اليابانيين .. وكان الكولونيل «عبد الله» عضواً بارزاً فى منظمة سرية من منظمات مقاومة الاحتلال اليابانى .. وقد أمدته «باندا» بأسرار حيوية عن تحركات وعمليات الجيش اليابانى فى اندونيسيا .. التقطتها من الضباط اليابانيين الكبار الذين كانوا يصفونها بأنها مثل ثمرة «جوز الهند» الشهية.

ونجحت معلومات «باندا» فى تجنيب الثوار العديد من الضربات الموجعة .. ونجحت فى كشف عدد القوات اليابانية وأسلحتها وأماكنها، مما مهد لهبوط الجنود

البريطانيين فى اندونيسيا .. فى عام ١٩٤٥ .. وخرج المحتل اليابانى .. وعاد المحتل الهولندى .. ووجدت «باندا» نفسها فى مازق .. فقد طلب منها الكولونيل «عبد الله» الاستمرار فى التعاون مع منظمته السرية لطرد المحتل الهولندى أيضا .. فقالت له: هل نسيت إننى هولندية..!

فقال لها: وهل نسيت أنك اندونيسية؟

قالت له لم أنس ما هو أهم وهو أننى أحبك.

قال لها: الحب فى وطن محتل هو حب ملوث بالأنفاس الغليظة .. والجلود السميكة .. والأحذية السوداء الثقيلة.

قال لها: هذا وطنى .. وأنا أحبك بدون تلوث.

لكن .. عبد الله الاندونيسى بالنسبة لها كان مثل رودولف الألمانى بالنسبة لأمها .. رغيف نصفه حب .. والنصف الآخر كراهية .. ورجل مستعد أن يبيعها تحت شعار الوطنية من أجل أن يحقق مجداً شخصياً .. وقد نشر عنها فيما بعد خطاباتها الغرامية إليه وفيها غضب شديد على تصرفاته .. وفيها تقول له: كيف تقبل أن تتركنى من رجل إلى رجل .. ثم تقول لى: إنك تحبنى .. إنك لا تحب إلا نفسك .. كيف يتحرر الوطن باحتلال فراشنا ؟ .. كيف يستقل بينما نحن فى حالة عبودية ؟.. ما الفرق بين أن نبيع عرقنا لناكل ونبيع عرقنا لنحرر وطننا .. الشرف لا يتوارى وراء الوحل .. وإلا أصبح وحلا .. والكرامة لا تختبئ وراء السفالة وإلا أصبحت مثلها .. أننى أكرهك بقدر ما أهواك .. واحتقرك بقدر ما أحبك .. وأتمنى أن أقتلك مثلما أتمنى أن أموت».

وتظاهرت «باندا» أمام الهولنديين بأن نصفها الأوروبى يحتقر نصفها الأسيوى.. وإطمأن إليها الهولنديون .. ونجحت فى تجنيد موظف كبير فى مكتب الحاكم العام

الهولندى .. وراح يمدها بكل ما تريد .. وما يريده الثوار من معلومات .. ولكن .. ما حصلت عليه من معلومات لم ينقذ حبيبها الكولونيل «عبد الله» من الموت .. فقد قتل فى معركة ضد فرقة استطلاع هولندية .. أصيب بعشرين طلقة رصاص .. وأخفت الدماء المتفجرة من القلب ملامح صورتها الفوتوغرافية التى كان يخفيها فى صدره.

وشعرت «باندا» بالحزن .. وقاطعت الحياة .. وأعلنت الصيام عن الرجال .. وقررت أن تنسى أنها امرأة وأنها جاسوسة .. وأن البنت لأمها .. لكن .. ذلك لم يستمر طويلاً .. فقد عادت إلى ما كانت عليه .. غلبتها أنوثتها .. وصفاتها الوراثية .. وحب المال .. وشهوة السيطرة .. وجنون التوتر والمغامرة.

واستخدمتها المخابرات المركزية الأمريكية فى التجسس على ثورة «ماوتسى تونج» الشيوعية فى الصين الشعبية .. إن الزعيم الذى سيطر على ثلث سكان العالم كان ضعيفاً جداً تجاه المرأة والجنس .. لقد تحول الفلاح الفقير إلى ثائر عنيد .. ثم تحول إلى زعيم كبير .. وفى كل هذه الأحوال كان عاشقا مجهولاً .. فكل غرامياته لم تكشف إلا بعد رحيله .. فكل الذين أرخوا لحياته أكدوا وأثبتوا أن زوجته «تشيانج تشينج» لم تكن المرأة الوحيدة فى حياته وكل الذين أرخوا لحياته أثبتوا أنه كان يفضل المرأة غير المستقيمة .. فحتى «تشيانج تشينج» بدأت حياتها عاهرة فى مدينة «شوشان» .. ويقال إن هذا النوع من النساء كان يغريه بكتابة الشعر .. وفى قصيدة نشرت بعد رحيله كتبها فى «تشيانج تشينج» عندما رآها لأول مرة وكان عمره ٤٥ سنة يقول: ليس لدينا سوى الحلم وربما الوهم نقدمه لمن نحب .. ليس لدينا كلام جميل ولا مفردات ولا شفاه ولا شطيرة خبز ولا حفنة أرز .. ولا قميص من الصوف نلبسه فى الشتاء .. إننا فى الشتات نسافر ضد البلاد والقوانين والاستقرار والموت .. فنحن ثوار».

تدربت «باندا» على أعمال الجاسوسية الحديثة لمدة ٣ شهور .. ثم ظهرت فى ثوب ممرضة فى «شنغهاى» .. ثم ساقية فى بار .. ثم متطوعة فى مقر الزعيم الصينى .. ثم عرفت طريقها إلى قلبه .. وراحت ترسل إلى الأمريكيين تقارير وافية عن الحركات الشيوعية فى جنوب شرقى آسيا .. وكشفها الكوريون فى شمال البلاد .. وضغطوا عليها لتعمل فى خدمتهم السرية .. لكنها رفضت قائلة: «لم أعد أقدر .. لم أعد استطيع».

وفى يوم ٢٤ مايو عام ١٩٥١ أعدمت فوق الثلوج فى كوريا .. أعدمت .. مثل أمها - رميا بالرصاص .. فوق الجليد ناصع البياض سال دمها الأحمر القانى .. فوق الجليد الأبيض سقطت زهرة الشمس الدافئة لتضيف إلى أسطورة «ماتا هارى» أسطورة أخرى .. وبقى رأس الأسطورة «ماتا هارى» أسطورة أخرى .. وبقى رأس الأسطورة خالداً فى متحف «التشريح» إلى أن جاء من سرقه .. لكن سواء عادت الرأس أو لم تعد فإن الأسطورة لن تموت .. ولن تختفى.

٦ وليمة من عقول المصريين !

فى عام ١٩١٦ عرف الأمريكيون زجاجة «الكوكا كولا» بشكلها المميز .. عرفوها مسحوبة العنق .. ضيقة الخصر .. واسعة البطن .. وبهذا الشكل المستوحى من تضاريس جسد راقصة شرقية غزت مدينة «أتلانتا» ـ عاصمة ولاية جورجيا ومدينة اليانصيب والسى. إن. إن والألعاب.. المشروب الذى يعتبره الغرب ـ هو وهامبرجر ماكدونالدز ـ رمزاً لحضارته التى يفرضها على العالم من بكين إلى طنجة ومن نيومكسيكيو إلى كيب تاون.

لكن .. بعد أكثر من ١٠٠ سنة شرب فيها الناس هذا النوع الشهير من المياة الغازية انتشرت فى مصر والدول العربية خرافة لم تفت شخصاً واحداً .. ورددها العالم والجاهل .. إنك لو وضعت كلمة «الكوكا كولا» أمام المرآه فإنك ستقراها: «لا محمد .. لا مكة» .. ولم يفكر أحد فى استحالة ذلك لعدم وجود حرف الميم المطلوب فى كلمتى محمد ومكة .. كما أن عدد الحروف مختلف .. على أن العقول التى لا تعرف التفكير إلا فى الخرافة راحت تصف ما تصورته على أنه سخرية من الإسلام .. وحربا نازية يشنها الغرب على الدين الحنيف .. دون أن تدرك أنها هى التى تسخر من نفسها .. وتحط من شأن ما تؤمن به.

إنها مشاعر الاضطهاد التى سيطرت على بعض المسلمين فراحوا يبحثون عنها

فى زجاجة صودا .. أو حذاء كاوتش .. أو ورقة شجر جافة .. أو حجر مكسور .. أو بيضة دجاجة .. أو صورة فراشة لو قمت بثنيها بطريقة ما فستجد منظراً جنسياً مثيراً .. ولو قمت بثنيها بطريقة أخرى فستجد إهانة دينية فظيعة كما أشاعت صحيفة من الصحف إياها.

لقد طبقت الثقافة الشعبية التى تستمد وقودها من الشائعة والخرافة ما يتردد منذ سقوط الاتحاد السوفيتى عما يوصف فى الغرب بخطر الإسلام البديل بطريقتها الخاصة .. فنمت عقدة الاضطهاد فى النفوس .. وضاعف ذلك من الفشل الذى يواجهه بعض المسلمين فى حياتهم .. مذابح .. وهزائم .. وفقر .. وقهر .. وتخلف.

إن هذا الفشل الذى لم يقدر هؤلاء المسلمون على تجاوزه على أرض الواقع جعلهم يفتشون فى عقولهم الباطنة عن أسبابه .. ومبررات احتماله .. وهكذا .. كانت الخرافة جاهزة لتلعب دورها .. وتنقذهم مما هم فيه .. لكنهم كانوا مثل الذى يستجير من النار بالرمضاء .. فزادت الكارثة .. واضيف لأسبابها الموضوعية السياسية أسباب أخرى نفسية.

لو تكررت السيول فى الصعيد والبحر الأحمر ـ وهى ظاهرة يعرفها المصريون منذ آلاف السنين ـ كان التفسير جاهزاً .. إنه غضب من الله .. ولو تعرضنا لزلزال .. فليس له تفسير سوى أنه إنذار من السماء .. وهو نفس ما شعر به المصريون عندما واجهوا قنابل ومدافع نابليون بونابرت ولم تقدر عقولهم على استيعابه .. فكشفوا رؤوسهم وتوجهوا إلى السماء مرددين: ياخفى الألطاف نجنا مما نخاف.

إن الطبيعة تعبر عن نفسها بالسيول والزلازل كيفما تشاء .. وستظل تفعل ذلك حتى لو تفرغنا جميعا للصلاة والصوم والتهجد .. فالبلاء اختبار المؤمنين .. والله قد يمد فى عمر الظالمين حتى يأخذهم وهم فى قمة القسوة والغطرسة ليصبحوا عبرة لمن يعتبر.

وقد شاعت على صفحة إنترنت تسمى Islam way discussion board حكاية لا نعرف حقيقتها .. ولا نعرف رأسها من قدميها .. ولكنها وجدت من يتداولها ..

ويوزعها عبر البريد الإلكتروني .. أو عبر البريد الجوى .. الحكاية تقول: إن سبب الزلزال المدمر الذى قلب أحشاء الأرض فى تركيا فى أغسطس ١٩٩٩ لم يكن اضطرابا فى طبقات القشرة الأرضية .. وإنما بسبب حفلة ماجنة بمناسبة تقاعد بعض الجنرالات الأتراك .. حضرها ٣٠ جنرالا تركيا و ٣٠ جنرال أمريكيا و ٣٠ جنرالا إسرئيليا .. وغرق الجنرالات جميعاً فى الخمر والنساء والرقص الماجن الذى أدته «راقصات يهوديات مجلوبات من إسرائيل اللقيطة ومن تركيا العلمانية» .. وفى أثناء ذلك «طلب جنرال تركى علمانى من نقيب صغير إحضار القرآن الكريم وأمره بأن يقرأ منه وأن يفسر ما قرأ فاعتذر النقيب لجهله بالتفسير» .. فإذا بالجنرال التركى يمزق القرآن .. كما تزعم هذه القصة.

«وأحس الضابط الصغير بالرعب والخوف فغادر القاعدة العسكرية مسرعاً ولم تمر سوى عدة دقائق حتى وقع الزلزال المدمر الذى بدأ بضوء شديد لونه زهرى غطى المنطقة كلها .. ثم شق الله البحر .. وتصاعدت منه نيران ملتهبة يرافقها انفجار شديد .. ثم امتد الزلزال إلى مناطق أخرى .. ولم تقدر فرق الإنقاذ على انتشال جثة جنرال واحد من الذين كانوا فى الحفل الماجن .. لقد صهروا هم وباقى الجنود والحرس فى القاعدة وعددهم ٣ آلاف شخص .. وقد حمل هذه المعلومات إلى الأردن شخص لم يذكر اسمه خوفاً من البطش به .. لكن الذى نشرها على هذا النحو هو الشيخ «عبد المنعم أبو زنط لشيحان» .. وهو- على ما يبدو- من المشايخ المعروفين فى عمان.

ولا اقدر على نفى هذه الحكاية التى تبدو مثل الأساطير .. لكن .. لا أحد أيضاً يستطيع أن يؤكدها .. فمصدرها مجهول .. ومروجها لم يكن فى موقعها .. ثم والاهم .. هل يعاقب الله حقا ٣ آلاف جندى وحارس فى القاعدة بالموت منصهرين لذنب لم يرتكبوه .. أو هل يأخذهم بذنب ٩٠ جنرالا تركيا وأمريكيا وإسرائيليا ؟..

إن القهر الذى يتعرض له الناس فى بعض الدول الإسلامية جعلهم إما يشعرون بالاضهاد فيرون الهلاوس البصرية التى تسئ للدين فى كل شئ حولهم .. وإما يحققون انتقام السماء فى حكاياتهم وأساطيرهم ويستخدمون تكنولوجيا العصر فى

ترويجها .. ويستغلون حالة الإحباط فى قبول الناس بها ..

ولذلك كان من السهل أن يخرج ١٥ ألف طالب فى جامعة الأزهر فى مظاهرة عنيفة بسبب سطور فى رواية لم يقراها أحد منهم .. وكان من السهل أن يتضامن الناس معهم .. ويشاركوهم الغضب والانفعال .. فالأرضية ممهدة .. والحطب الجاف لا يحتاج سوى شرارة .. والشرارة هى خبز الذين احترفوا استغلال مشاعر الناس الدينية ليحققوا مكاسب دنيوية .. وهؤلاء ـ للحقيقة والإنصاف ـ ليسوا فى صحيفة «الشعب» فقط وإنما فى صحف أخرى .. ولقد قال صلاح منتصر فى عموده فى «الأهرام» إن تفجير رواية «وليمة لاعشاب البحر» بدأت فى صحيفة «الأسبوع» ثم انتقلت إلى صحيفة حزب العمل .. ووجدت صداها فى صحف أخرى .. إذن فالكل شركاء فيما جرى لأسباب وأهداف مختلفة.

والرواية عمرها ١٧ سنة .. وهى متداولة فى جميع الأسواق العربية .. وتدور فى منطقة «الأهواز» العراقية فى فترة حكم فاشية .. ديكتاتورية .. أما الجزء الأزمة فهو يصور شخصا ملحداً ينكر الوجود الإلهى .. ويحاوره شخص آخر يفند ما يقول .. إنه المنطق نفسه الذى بنيت عليه كل أفلامنا الدينية التى تصور الكفار وهم يسخرون من النبى (صلى الله عليه وسلم) فى مقابل من يؤمنون به ويدافعون عنه وهى أفلام ضاعفت من مشاعر الإيمان ولم تهدده .. ولو أخذنا بمنطق المنع والحرق الذى علت الأصوات تطالب به لحرقنا كل هذه الافلام .. ولحرقنا معها كل الأفكار .. وكل الكتب.

إذن القضية ليست قضية رواية .. و لا قضية حرية رأى .. إذ كيف تكون قضية رأى ولا أحد قرأ .. ولا أحد فهم .. لا رأى يقوم على جهل .. لا رأى يقوم على التفويض بالقراءة .. كفانا ثقافة سمعية نعتمد فيها على الشائعات والأقاويل والنميمة فى النوادى والتليفونات .. إن هذا النوع من الثقافة الدارجة المدمرة امتد من العامة إلى الخاصة .. ومن المتسكعين إلى المثقفين .. مع كل الاحترام والتقدير لكلمة المثقفين .. القضية قضية فراغ عقلى فى مناقشة القضايا الجادة فى هذا الوطن .. وهو فراغ غمرته التصورات الخاطئة الجافة التى كان من السهل إشعال

النار فيها بعود كبريت واحد.

إننا لم نجد مناقشة جادة وساخنة لقضية السيولة .. والركود .. ودور مصر بعد السلام .. ولم نجد مناقشة جادة وحيوية لقضايا الدروس الخصوصية .. والقرارات العشوائية .. وانكماش الطبقة الوسطى .. وتراجع دورها المهم فى المجتمع .. ولم نجد مناقشة جادة وجريئة لقضايا الانحراف الاجتماعى التى تعكسها صفحات الحوادث فى الصحف اليومية .. رجل يشوى رأس زوجته على البوتاجاز .. امرأة تستغفل زوجها لمدة عامين مع عشيقها الذى ظل يتردد عليها لمدة عامين وهو يتنكر فى ثياب امرأة منقبة .. موظف كبير بدرجة وكيل وزارة ينتحر لفشله فى أن يحضر لابنته فستان الخطبة.

هذه هى القضايا التى تستحق من الانفعال والغضب والصراخ على صفحات الجرائد .. لكن .. كيف يمكن أن نناقش مثل هذه القضايا وكل مؤسسات المجتمع المدنى مشغولة بنفسها وبمتاعبها الداخلية .. الأحزاب .. النقابات .. الجامعات .. والجمعيات الأهلية .. إن كل مؤسسة من هذه المؤسسات متفرغة لمعارك وجودها وبقائها .. كيف تبقى ؟ .. كيف تجرى انتخابات ؟.. كيف تحافظ على كيانها ؟.. كيف توفق أوضاعها ؟.. لا وقت لديها للمجتمع ولقضاياه .. ففاقد الشئ لا يعطيه .. ومن ثم كان الفراغ والخواء .. وكان هناك من هو مستعد لاستغلاله والعبث به .. بكلمة كوكا كولا تقرأ خطأ فى المرأة .. وبصورة فراشة توحى مرة بالخطيئة ومرة أخرى بالفضيلة .. بتفسير لا أساس علمى له للزلازل والأعاصير والسيول والسحب السوداء الثقيلة.

إن العضو الذى لا يعمل ينقرض ويصيبه الضمور والزوال .. الشفاه تضمر لأنها لا تهتز .. الأصابع تنقرض لأنها لا تتحرك .. العقول تختفى وتزول لأنها لا تفكر.. وما دامت الفكرة لا تجد قناه تصب فيها .. فإننا سائرون إلى الهاوية .. والهاوية دائما تبدأ بمساحة شاسعة من الجفاف يسمونة فى علم السياسية وفى علم الجغرافيا بالفراغ.

هذا الفراغ ـ الذى استغلته ونفخت فيه التيارات الغوغائية ـ نحن مسؤلون عنه ..

ونحن ندفع ثمنه .. ونحمد الله أن الثمن لم يكن هذه المرة باهظا .. ونحمد الله أن ما جرى نبهنا إلى ما هو قابع تحت السطح فى انتظار شرارة جديدة .. ونبهنا إلى ضرورة تنشيط مؤسسات المجتمع المدنى من جديد لتلعب دورها الغائب .. لقد نجحت التيارات الغوغائية فى التأثير على عقول الناس ولم يكن ذلك أمراً صعباً .. فعندما تكون هذه العقول بيضاء .. يسهل الشخبطة عليها بأى بقعة حبر.

وفى الأزمة كان الإعلام متردداً كما كان فى حادث الطائرة المصرية التى سقطت وتلاشت فى نيويورك .. وكما فى حادث السحابة السوداء الكثيفة التى غطت سماء القاهرة .. إن المحطات الفضائية العربية والأجنبية سارعت بمناقشة ما جرى .. لكن بقيت محطاتنا الرسمية والمحلية والفضائية والمتخصصة فى انظار التعليمات.

إن الإرهاب ليس له وجه واحد .. فعنده مجموعة كاملة من الأقنعة والأثواب التنكرية .. فهو مرة يطلق الرصاص .. ومرة يحرض على حرق الأفكار .. مرة يطالب بالقتل والأغتيال .. ومرة يتجلى فى صورة كاتب يحول القلم إلى بلطة .. وزجاجة الحبر إلى زجاجة مولوتوف .. مرة يكلمنا بصوت الغيور على الدين .. ومرة يخرج صوتة خشنا قاسيا قاتلاً على طريقة أودلف هتلر.

لقد انتهى الإرهاب بالرصاص وقفز الإرهاب بالمانشتات والميكروفونات والكاسيتات .. إن العدو لم يعد مستورداً من الخارج .. بل أصبح فى الداخل .. بيننا.. منا .. تركنا له حرية التصرف فى مقدرات هذا الوطن وسحبناها من الذين كادوا يدفعون حياتهم لإيمانهم بهذا الوطن ولعشقهم له .. إنها ليست مشكلة جديدة ولا كبيرة .. تعرض الوطن لأكبر منها وأشد .. لكن الذين عليهم المواجهة الآن تشغلهم أنفسهم ومكاسبهم ومعاركهم الوهمية .. على أن الوقت لم يفت للتوقف والفحص ومعرفة العدو من الصديق .. لم يفت الوقت لأخذ مسالة الإصلاح مأخذ الجد لسد الفراغ وترطيب الحطب الجاف منعاً للنار والاحتراق.

٧ هل يعبد المسلمون حقاً .. القمر؟!

لابد أن تضع أعصابك فى «ثلاجة» قبل أن تقرأ هذا المقال .. فكل كلمة فيه هى سفر على لوح من زجاج مكسور .. يمتلئ بالخناجر والشظايا .. إن لم تجرح قدمك جرحت أصابعك .. وإن لم تجرح أصابعك جرحت قلبك .. وإن لم تجرح قلبك ذبحت ضميرك.

ستخرج من دمعة إلى دمعة أكبر .. وستجتاز حدود جرح قديم لتدخل فى حدود جرح جديد .. ولكى تنجو من هذه الرحلة الزجاجية الدامية وتعود سالماً يجب أن تكون قديساً أو بهلواناً .. وأغلبنا لا يملك الموهبتين.

لقد ترجمت «الهيئة العامة للاستعلامات» مؤخراً كتاب «الصورة الشائعة للعرب والمسلمين فى الثقافة الشعبية الأمريكية» وهو تقرير يجعلنا نبصق دماً، كتبه خبير شهير بألاعيب «الميديا» وخطورتها هو البروفيسور جاك شاهين .. المحاضر فى معظم الجامعات الأمريكية .. ومؤلف ٣٠٠ كتاب فى هذا المجال .. وقد نشر التقرير - الذى لا يزيد على ٩٥ صفحة - مركز «التفاهم الإسلامى المسيحى» بجامعة «جورج تاون» فى واشنطن .. وفيه أبشع صورة يمكن أن نراها لأنفسنا فى عيون ومرايا الآخرين.

إنها صورة تتفجر قبحاً وجهلاً وكراهية .. يبدو فيها العرب والمسلمون قوماً من الشياطين .. والإرهابيين .. الذين سيدمرون بالتعصب والبداوة والجليطة الحضارة الغربية .. ليعيدوا البشرية إلى عصر العبودية .. حين كان الإنسان أرخص من البقرة .. وحين كان الرجل مثل شهريار.. أشهر بلطجى نساء عرفه التاريخ .. وقد كان ينبطح على بطنه وحوله جيش من الجوارى والمحظيات يحملن المراوح ويرقصن له حتى الصباح.. أو حتى تطير رقابهن.

لكن .. أخطر وأسوأ ما فى هذه الصورة أن دارسى الأديان هناك يتصورون أن الإسلام ليس ديانة سماوية وإنما ديانة وثنية يعبد أتباعها إله القمر .. ويسجدون له.. وهو على حد وصف أحدهم (الدكتور روبرت مورى) .. إله وثنى تزوج الشمس وأنجب منها النجوم التى هى بناته ـ أنظر ص ١١ من التقرير.

ومادام الإسلام ـ كما يقولون ـ ديانة وثنية وليس امتداداً لليهودية والمسيحية فإن الطعن فى الرسول صلى الله عليه وسلم مباح وبلا حدود.. فهو مرة نبى لديانة مجنونة بالحقد والعنف .. وهو مرة أخرى نبى لديانة لا تحترم توقيع المعاهدات .. وهو مرة ثالثة نبى لديانة يتزوج فيها أتباعه والمؤمنون به «ستة وثلاثين عذراء ليشبع الواحد منهم رغباته» .. وقد نشر «جون لويد سيتفتر» إلى جانب هذا التصور «رسماً توضيحياً لنساء بدويات .. عاريات النهود .. ومكتوب تحت الرسم .. «هذا ما يتوقع كل مسلم تقى أن يجد فى الجنة» ـ ص ١١.

وبالأرقام .. تكشف استطلاعات الرأى العام أن ٤٢ ٪ من الأمريكيين يرون أن المسلمين أتباع دين يتسامح مع الإرهاب ويؤازره .. وأن ٤٧ ٪ يرون أن المسلمين معادون للغرب .. وأن ٦٢ ٪ يرون أن المسلمين يعرضون المرأة للتمييز والاضطهاد (ص ٩) .. ورغم أن العرب يمثلون ١٢ ٪ فقط من المسلمين فإن ٧٠ ٪ من الأمريكيين يرون أن إيران وأفغانستان وباكستان هى دول عربية .. وهو ما يوحد صورة العرب

وصورة المسلمين فى صورة واحدة.

ولا يعرف الأمريكيون أن هناك قرابة ١٥ مليون مسيحى عربى من طوائف شتى يعيشون فى البلدان العربية .. لا تشير إليهم السينما أو الميديا الأمريكية .. مع أن ٣٠٪ فقط من العرب الأمريكيين البالغ عددهم ٣ ملايين نسمة مسلمون .. والبقية مسيحيون.

وفى الولايات المتحدة حوالى ستة ملايين مسلم .. ومن المتوقع أن يزيد عددهم فى نهاية هذا القرن على عدد اليهود الأمريكيين ليصير الإسلام بذلك ثانى أكبر ديانة فى الولايات المتحدة بعد المسيحية ورغم أن للمسلمين هناك ٢٠٠ ألف مشروع و ١٥٠٠ مسجد و ١٦٥ مدرسة و ٤٢٥ رابطة و ٨٥ نشرة فإن صورتهم الشائعة فى العقلية الأمريكية هى صورة تجمع العيوب والنقائص من كل البشر .. من الإرهاب إلى تهريب المخدرات .. ومن قهر المرأة إلى موالاة الطغاة .. ومن التعصب الدينى إلى تهديد الأمن القومى .. ومن الوحشية والقسوة والإلحاد إلى خطف الطائرات وتفجير المبانى العامة.

باختصار .. هم يمسكون القنبلة فى اليد اليمنى .. ويمسكون المصحف فى اليد اليسرى .. ويجرى إقحام هذه الصورة فى السينما .. فهناك أكثر من ١٥٠ فيلماً تقدم صورة العرب والمسلمين شبيهة بالأشباح تعرض شبكات التليفزيون منها ما بين ١٥ ـ ٢٠ فيلماً أسبوعياً .. وفيها يوصف الواحد منا بالحيوان .. والخنزير .. والحثالة .. والإرهاب .. والسوسة التى تنخر فى الخشب .. والوحش المتشرد الذى يذبح الأطفال .. وتتفجر عناوين الكتب ومقالات الصحف بما يدعم هذه الصورة السوداء .. مثل «نيران الإسلام» .. «الإسلام الملتهب» .. «جذور الغضب الإسلامى» .. «الإسلام وتدمير الغرب» .. وفى كتاب المواد الاجتماعية الذى يدرسه التلاميذ فى الصف السادس فصل عن الشرق الأوسط يصوره على أنه ابل وخيام ونساء

منقبات ويدرس التلاميذ فيه أن «الفتاة المسلمة التقليدية لا تذهب إلى المدرسة» .. وأن المرأة جارية لا تملك شيئاً .. وعادة ما يسأل المدرسون الطالبات: «أتحب إحداكن أن تكون امرأة فى الشرق الأوسط» .. وغالباً ما تكون الإجابة معروفة مسبقاً؟.

لقد أصبح العربى والمسلم هو الشرير الجديد الذى يكتسح الميديا والدراما والسينما الأمريكية .. اختفى اليهودى البخيل الشره .. والإيرلندى السكير .. والهندى المتوحش .. والسوفيتى القاسى .. والإيطالى المجرم فى عصابات المافيا .. والجنس الآسيوى الأصفر الذى يحترف القتل وتجارة الأفيون .. اختفى كل هؤلاء الأشرار وجاء الدور علينا لنحل محلهم .. وهو ما جعل الصحفى الأمريكى جاى ستون يتساءل بمرارة: «هل تخرج صورة العربى فى عيوننا على أنه واحد من ثلاثة .. مليونير .. أو إرهابى .. أو عربيد؟ .. أين العرب والمسلمون العاديون فى الميديا والسينما الأمريكية؟ .. لقد آن الأوان لأن ننهى هذه الحرب غير المعلنة التى نخوضها بلا مكاسب!».

فى العشرينات كانت صورتنا هى صورة البدوى المتوحش القاسى الذى يتاجر فى العبيد .. وفى السبعينات أصبحت صورتنا هى صورة البدوى الثرى العربيد النهم للنساء .. وفى التسعينات وصلت صورتنا إلى صورة الإرهابى الأصولى المتعصب الذى يصلى قبل أن يقتل الأبرياء .. أو يفجرهم .. إنها صورة شخص همجى .. أشعث الرأس .. يتحدث بلكنة ثقيلة .. يشتهى أن يمتلك أموال العالم .. يشبه الخنزير فى ابتلاعه الطعام .. يقتل الأطفال بلا رحمة إذا لم يغتصبهم.

وقد جعلت هذه الصورة العرب والمسلمين «العدو الأول للحضارة» .. والمتهم الجاهز فى جرائم العنف والإرهاب .. وفى التغطية الإعلامية .. فى الانفجار الذى وقع فى مدينة أوكلاهوما ـ فى ١٩ أبريل ١٩٩٥ والذى قتل وأصيب فيه حوالى

٧٠٠ شخص ـ قال صحفيون ومسئولون أمريكيون فى البداية: «إن الجناة هم أناس من الشرق الأوسط .. ثم أتضح أن الجناة من الأمريكيين البيض المتطرفين هما تيموتى مكفامى ويترس نيقولاس .. واتضح انه من بين ١٧١ شخصاً أدينوا بالإرهاب فى الثمانينات كان ١١ شخصاً فقط من العرب بنسبة ٦ ٪ وفى التسعينيات كان ٩٦ ٪ ممن أدينوا بالإرهاب ليسوا عرباً وليسوا مسلمين .. حسب تقرير للخارجية الأمريكية صادر عام ١٩٩٥.

وبالرغم من ذلك يصر الكاتب اليهودى المتطرف أ. م. روزينتال فى «نيويورك تايمز» على أن «كل الإرهاب الموجه إلى الولايات المتحدة مصدره الوحيد هو الشرق الأوسط» .. كان هذا فى فبراير ١٩٩٧ .. وفى الشهر التالى نشرت صحيفة «ميامى هيرالد» كاريكاتيرا يصور مخلوقاً يشبه القرد .. يطلق لحيته .. ويرتدى عمامة .. ويمسك هراوة .. مكتوباً عليه كلمة «الإسلام» .. ومكتوباً فوقها كلمة «كافر» وهو يقول: نحن نفجر النساء والأطفال الأبرياء ونمزقهم إرباً.

واستغلت الإذاعة الألعاب الأوليمبية لمضايقة العرب والتشهير بهم .. ففى ٢٣ يوليو ١٩٩٦ قال المعلق الرياضى الإذاعى سكوت سلوان عبر الأثير: إننى أشعر بالسأم من الأوليمبياد .. وحينما ذهب محمد على (كلاى) ليضئ الشعلة .. قال:

خشيت أن يسقط محمد على بالشعلة على شخص ملوث بالشحم من أبناء الشرق الأوسط ويفجر المكان.

ولا تستجيب الميديا أو السينما الأمريكية لاحتجاجات العرب والمسلمين ولا تعتذر لهم حتى إذا ما أدركت أنها أخطأت .. وهو ما يجعل حياة الملايين من العرب والمسلمين الأمريكيين جحيماً .. فبعد أى حادث إرهابى يتعرضون للتهديد بتفجير منازلهم ومحال أعمالهم .. وتلقى القمامة على المساجد .. وتسارع أجهزة الأمن بالقبض على بعضهم .. ويعود الأطفال إلى بيوتهم يبكون.

ولا تكترث إدارة المدارس عادة بشكوى أولياء أمور الطلبة المسلمين والعرب من سوء معاملة أبنائهم إلى حد قول ناظر مدرسة فى مدينة لوس أنجلوس لوالدة طالبة اشتكت له من أن ابنتها تعود باكية من سوء معاملة زملائها لها:

إذا لم يعجبكم يا رعاة الإبل البقاء هنا فاذهبوا إلى الجحيم - ص ٢٦ من التقرير.

وفى كلورادو اشتكت أسرة أمريكية عربية مما جاء فى كتاب التاريخ من أن «الإسلام دين مزيف» فرد الناظر بأنه سيقترح على الناشر أن يصف كل الأديان غير المسيحية بأنها أديان مزيفة» - وفى ماريلاند تحدثت مدرسات عن أن المسلمين يؤمنون بآلهة كثيرة - وأن من القسوة أن يصوم الأطفال فى رمضان.

ولا يقتصر الأمر على الصحفيين والمدرسين ومنتجى الأفلام .. بل يمتد إلى بعض السياسيين الذين يعزفون نفس النغمة .. ففى أغسطس ١٩٩٠ قال السيناتور ج. ج ايكسون «إن الحياة فى العالم العربى ليست مهمة كما هى فى العالم غير العربى» .. وفى يناير ١٩٩٤ قدمت لجنة من الحزب الجمهورى تقريراً إلى الكونجرس بعنوان «الإسلام ضد الكنيسة».

وهذه الصورة السيئة ليست مؤلمة نفسياً فقط وإنما تساهم فى كوارث سياسية أيضاً .. فهذه الصورة هى التى جعلت جيفرى هارت كاتب العمود فى «واشنطن تايمز» يكتب قائلاً: إن الرد الصحيح على هجوم إرهابى إسلامى هو شن هجوم فورى ومدمر ضد أى دولة شرق أوسطية .. وهو ما حدث فيما بعد على السودان .. وهو ما يجعل العالم مستريح البال .. نائم الضمير والحصار مستمر على ليبيا والعراق .. كذلك استخدام هذه الصورة فى سرعة قبول الكونجرس لفكرة قانون حماية الأقليات غير المسلمة فى الشرق الأوسط .. وفى الاصطياد فى الماء العكر وهم يتحدثون عن أقباط مصر.

والمثير للدهشة والاستياء أن الأفلام الأمريكية التى تشوه صورتنا تعرض فى دور السينما والفضائيات العربية وهو ما يؤثر فى نفسية الأجيال الشابة .. وما يشجع على انتاج مزيد من هذه الأفلام أنها ستدر للولايات المتحدة مع نهاية هذا القرن ٢٠٠ مليار دولار .. نصفها يأتى من الخارج.

ولا يهتم أحد فى الولايات المتحدة بكل الاحتجاجات والاعتراضات من جانبنا على هذه الصورة .. فنحن فى نظرهم «جنس فى طريقه إلى الانقراض» أو جنس خطابى ينفعل لغوياً .. ولكنه فى النهاية لا يفعل شيئاً وسيهمد كما تهمد فقاعات الصابون .. كلنا بضاعة واحدة فى نظرهم .. نذوب جميعاً فى كؤوسهم وفى هواهم ونتحول إلى سائل واحد لا لون .. ولا رائحة .. ولا طعم له .. فعشقنا فى نهاية الأمر هو من طرف واحد.

وقد تكون الصورة رهيبة .. وقبيحة .. وسوداء .. ولا إنسانية .. فيها الكثير من التعسف والتعمد وسوء النية .. لكن .. لابد أن نعترف بأننا ساهمنا فيها .. وأعطينا مئات الفرص لتثبيتها.

فقد استغلت بعض الجماعات المتطرفة الدين استغلالاً واضحاً وراحت تقتل وتفجر وتذبح وتهدد .. وفى عالم ضاق بتكنولوجيا الاتصالات راحت الصورة تكبر وتنمو وتتضخم حتى شملتنا جميعاً.

وفى عصر الديمقراطية وحقوق الإنسان نجد حركة طالبان فى أفغانستان - وهى محسوبة فى عيون الغرب على الحركة الإسلامية مهما أنكرنا - تشنق خصومها بغير محاكمات .. وتحرم الغناء وتمنع التليفزيون وتعزل النساء وتجبر الرجال على اطلاق لحاهم .. والحقيقة أن من يشاهد أنصار حركة طالبان على شاشة التليفزيون لا يجد اختلافاً واضحاً بين صورتهم وصورة المسلمين فى العقلية الأمريكية .. والمؤكد أنه هناك أخطاء فى التعميم .. لكن منذ متى والناس فى الغرب لا يفرقون

بين مسلم معتدل ومسلم متطرف .. ولا بين عربي يؤمن بالعلم وعربي يؤمن بالخرافة ؟ .. إن الملامح السيئة فى الصور العامة للشعوب تعم .. أغلب الشخصيات المشهورة فى الغرب لا تسر .. عمر عبد الرحمن .. حسن الترابى .. صدام حسين .. وعندما تبرز شخصية لامعة على مستوى الكون مثل نجيب محفوظ نجد خنجراً قد رشق فى رقبته .. ولسنا فى حاجة إلى تكرار ما فعله قتال المسلمين والمسلمين فى الحرب بين إيران والعراق .. وقتال العرب والعرب فى حرب الخليج الثانية .. والتوتر المستمر بين العرب والمسلمين على الحدود السورية التركية .. فلو كنا نحن المسلمين والعرب نذبح أنفسنا بأنفسنا فلماذا نطالب العالم بأن يعاملوننا برفق وسماحة وموضوعية ؟.

وعندما تطل الميديا الغربية لتعرف القضايا التى تشغلنا لا تجد سوى الختان وتكفير بعض الكتاب ومطالبة المرأة بالعودة إلى الظل تمهيداً لفرض المزيد من النفوذ لشهريار.

لقد تعودنا أن نلقى المسئولية على الاستعمار واللوبى اليهودى وقوى الشر التى تتربص بنا .. ونحن لا نعفى كل هؤلاء من المسئولية .. ولكن لا نعفى أنفسنا منها أيضاً .. إن البكتيريا لا تهاجم إلا الجراح والأماكن المفتوحة فى الجسم .. وقبل أن نلومها ونصرخ من هجومها علينا إغلاق الجراح ومعالجة العيوب .. وسد الثغرات .. علينا أن نبدأ بأنفسنا.

٨ عاصفة النار فى يوم الغفران !

.صامت مصر ٢١٩٠ يوماً .. عمر الاحتلال الاسرائيلى لسيناء منذ ٥ يونيو ١٩٦٧ .. وأفطرت على صوت ٢٠٠ طائرة و ٢٠٠٠ مدفع من مختلف العيارات فى يوم ١٠ رمضان ١٣٩٣ هجرية .. أو ٦ أكتوبر ١٩٧٣ ميلادية .. أو يوم كيبور ٥٧٢٣ عبرية.

كان ذلك اليوم منذ ٢٥ سنة .. وفيه تعرفت مصر على وجهها فى مرايا قناة السويس .. وحفرت اسمها بحروف النور والنار فى كتاب «الشهادة» .. وحفظت بالعرق والدم أبجدية الاقتحام .. وقفز جنودها إلى الضفة الأخرى للكبرياء وقد لمعت عيونهم ببريق لا مثيل له فى الأحجار الكريمة.

كانت اسرائيل قد بدأت منذ ١٠ أيام الاحتفال برأس السنة العبرية «روش هاشاناه» ويعتقد اليهود أن الله خلق العالم فى هذا اليوم قبل ميلاد المسيح بـ ٣٧٦٠ سنة .. وهم يؤمنون بأنه يوم الحساب السنوى الذى تمر فيه المخلوقات جميعها أمام الله «مثل قطيع من الأغنام» وبهذا العيد تبدأ أيام التكفير وهى ١٠ أيام تنتهى بيوم كيبور أو يوم الغفران .. أقدس أيامهم على الإطلاق .. وأسوأها أيضاً بعد أن عبر المصريون

القناة .. وركبوا خط بارليف .. وأسقطوا أسطورة أو خرافة اسرائيل التى لا تهزم.. وبعثوا الروح فى جثة «العرب» التى دفنها العالم فى يونيو ١٩٦٧.

لقد ظلت مصر ست سنوات تحاول الخروج من حوت الهزيمة الذى ابتلعها فى بطنه .. وهو حوت كبير .. رأسه فى واشنطن .. وذيله فى تل أبيب .. ولم تفلح محاولات الوسطاء والسياسيين وأصحاب الكرامات «فما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة» .. والعالم لا يشفق على المذبوحين.. ولا يحترم إلا الأقوياء .. والتاريخ لا تصنعه النيات الطيبة وإنما الأحذية الثقيلة.

ست سنوات عاشتها مصر فى حزن وشحوب .. وصبر وترقب .. رهنت خلالها أبناءها .. ورهنت أساورها وأعلنت الصيام العام حتى حفظت مزامير العبور وتجاوزت الخوف من الموت .. واكتشفت أن صوتها القوى الحقيقى ليس فى حناجر مطربيها وإنما فى رصاص مقاتليها.

وهكذا .. بدأت الملحمة فى الساعة الثانية من بعد ظهر يوم السبت ٦ أكتوبر ١٩٧٣ كانت الضربة الجوية الأولى وقوامها ٢٠٠ طائرة عبرت القناة على ارتفاع منخفض لضرب مراكز قيادة العدو ومواقع الرادار ومحطات الاتصال والقواعد الجوية المتقدمة .. وبعد ١٠ دقائق خرجت النيران كثيفة من ألفى مدفع لتدك وتدمر ما وراء خطوط العدو لفصل العمق عن جبهة القتال .. وفى الوقت نفسه راح ٦٠٠ مدفع تركز على مدى قصير بضرب تحصينات خط بارليف .. وعندما مرت ٢٥ دقيقة فقط كانت قوارب المطاط تنزل مياه القناة بجنودها تحت وابل من نيران العدو الذى بدأ يفيق من المفاجأة .. وفى ثوان كان ٦٠٠ قارب ـ فى كل منها ثمانية جنود ـ تشق طريقها إلى الضفة الغربية وسط جحيم من النار .. وفى الساعة الثانية والنصف تماماً رفع العلم المصرى على سيناء .. مطرزاً برصاص البطولة ودماء الشهداء .. وفى هذا الوقت انتهت شرعية «يوليو» ١٩٥٢ ـ التى ترنحت فى «يونيو» ١٩٦٧ ـ وبدأت شرعية «أكتوبر» ١٩٧٣ .. ان السلاح ليس مجرد وسيلة لتحقيق

أهداف بالقوة وإنما هو وسيلة تغيير لسياسات وأساليب ومبررات الحكم .. ومن ثم فإن العبور لم يكن فقط من مكان إلى مكان .. ومن ضفة إلى ضفة.. وإنما كان كذلك عبور من حال إلى حال .. ومن نظام إلى نظام.

لقد وصل الرئيس أنور السادات إلى المركز رقم «١٠» المقر الرئيسى لقيادة العمليات .. على طريق القاهرة ـ السويس .. فى الساعة الواحدة من بعد ظهر يوم العبور .. حتى ذلك الوقت لم يكن الناس يثقون فيه.. وكان يستمد شرعيته من سلفه جمال عبد الناصر الذى كان وهو فى القبر يبدو أكثر قوة من خليفته فى السلطة .. وفى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل تغيرت صورته تماماً .. فقد أصبح فى عيون الناس «بطل الحرب» و «صاحب القرار الشجاع» الذى حقق نصراً عسكرياً لم يكن ينتظره أحد .. وأصبح فى عيون العالم «داهية سياسية» .. وفى أعماقه شعر بأنه تجاوز جمال عبد الناصر .. وقد دفعته النشوة إلى الغرور .. ودفعه الفوز الى الانفراد بالرأى .. وعرفت مصر حاكماً من نوع خاص خلط بين المسرح القومى والأمن القومى .. ألغى المسافة بين العام والخاص.. فأصبح جيش مصر .. جيشه .. وأصبح شعبها .. شعبه .. وأصبح عبورها ـ الذى دفعت فيه الكثير من القوت والدم ـ عبوره.

لقد خرجت مصر من القمقم مثل المارد المحبوس بعد ضغوط هائلة.. كانت قوة جبارة أذهلت العالم .. وأقنعته بأن مخزونها الحضارى يمنحها فى الوقت المناسب القدرة على صناعة المعجزات .. خاصة فى الأوقات العصيبة .. وساعات التحدى . ولكن .. شرط أن تضرب السلطة المثل.. وتكون قدوة .. فالناس فى مصر على دين حكامهم.

إن اللجنة العسكرية فى الكونجرس الأمريكى اعترفت فى تقريرها ـ الذى قدمته فى ٣ ديسمبر ١٩٧٣ ـ بأن اقتحام خط بارليف «عمل عسكرى لا يقل فى أهميته عن سقوط خط ماجينو الفرنسى فى سنة ١٩٤٠» والذى كان من أقوى الخطوط

الدفاعية فى الحرب العالمية الثانية .. واعترف التقرير بأن مصر ألغت تفوق الطيران والمدرعات باستعمال الصواريخ الصغيرة .. وانها لم تستعمل فى الحرب أسلحة حديثة متطورة وانما استخدمت الأسلحة القديمة بطريقة جديدة وصفتها بأنها مذهلة.

واعترف التقرير بأن مصر شلت فاعلية نظام التعبئة العامة بعنصر المفاجأة وبخطة الخداع الاستراتيجى وبالتخطيط للحرب على جبهتين - الجبهة المصرية والجبهة السورية - فى وقت واحد.

والحقيقة أن اسرائيل كانت ترى أمامها مؤشرات ودلالات واضحة على أن مصر وسوريا على وشك الهجوم .. لعل أقواها ما حصل عليه رئيس الموساد زافى زامير من أخطر جواسيس اسرائيل وأكثرهم ثقة .. أنه عميل ماهر جداً .. كثير السفر بين أوروبا والشرق الأوسط بوصفه استاذاً للغات القديمة .. ويعتبره معظم زملائه شارد الذهن .. يضيع حاجاته وكتبه دائماً .. والواقع أنه قادر على حفظ الأسرار والحصول عليها .. كان فى لندن عندما أرسل برقية فى الساعة الثانية والنصف من فجر يوم الجمعة ٥ أكتوبر ١٩٧٣ إلى رئيس الموساد من كلمة واحدة هى «تزنون» وهى كلمة عبرية تعنى «فجل» .. وتعنى بالشفرة المتفق عليها أن «الحرب وشيكة».

ولأنه كان أفضل عملاء اسرائيل فقد سافر إليه فى لندن رئيس الموساد خلال ساعات من وصول كلمة «فجل» وهناك عرف زافى زامير بتوقيت الحرب .. لكنه .. لم يستطع ارسال معلوماته إلى اسرائيل لأن عامل الشفرة فى سفارتها فى لندن كان غائباً بسبب عطلة يوم كيبور .. فاضطر رئيس الموساد إلى تجاوز احتياطات الأمن وأرسل ما عنده بالتلغراف عبر مكتب بريد .. وكان نص برقيته: «شحنة الفجل ستصلكم بعد الظهر» وترجمت الموساد البرقية إلى تقرير أرسلته إلى رئيس الأركان الجنرال دافيد اليعازر .. ووزير الدفاع الجنرال موشى ديان .. وكان نص التقرير: «المعلومات المنتظرة وصلت .. وهى واضحة تماماً .. ينوى الجيش المصرى والجيش السورى شن هجوم

على اسرائيل الساعة السادسة بعد الظهر .. سيجرى الهجوم فى وقت واحد على جبهتى السويس والجولان».

لكن قادة الحرب فى اسرائيل كانوا قد أقنعوا أنفسهم بأن العرب جثة هامدة وأنهم عاجزون عن القتال .. وكانت السخرية منا مريرة .. فقد قيل بعد الاجتياح الاسرائيلى للقدس فى يونيو ١٩٦٧ أن اليهود عقدوا صفقة لاقتسام حائط المبكى مع العرب .. احتفظ اليهود بالحائط .. وتركوا للعرب الدموع .. وقيل أن موشى ديان سأل رئيس أركانه: «ماذا نفعل اليوم؟» فكانت الإجابة: «لعلنا نحتل دولة عربية أخرى» .. فاستطرد ديان: «وماذا نفعل بعد الظهر؟».

وبسبب هذا التصور الأعمى .. الأسود لم يصدق مجلس الوزراء الاسرائيلى الذى كانت ترأسه جولدا مائير أن العرب يمكن أن يدخلوا فى حرب .. ورفض موشى ديان دعوة ٢٠٠ ألف جندى فى الاحتياط الى الخدمة .. وشاركتهم وكالة المخابرات المركزية (الأمريكية) فى تصورهم.. واكتفى وزير الخارجية الأمريكى هنرى كيسنجر بأن يطلب من العرب ضبط النفس .. ووافق الاسرائيليون على استبعاد فكرة الضربة الوقائية .. وهى ما كانت تخشاه مصر حتى ساعة الصفر.

إن ما جرى أصاب الاسرائيليين بالشلل .. وذاقوا لأول مرة طعم الانكسار بعد سنوات طويلة من الانتصار .. وفى مذكراته اعترف موشى ديان .. العجل الذهبى للعسكرية الاسرائيلية بأنه «شعر بهم ثقيل على قلبه» .. وسيطر عليه الاكتئاب والتشاؤم .. «فقد عانى الاسرائيليون من ضربة ثقيلة».

واستطرد: اننا لم نفشل فقط فى مواجهة المصريين وانما «لم نستطع أن نلحق بهم إلا خسائر قليلة نسبياً» .. وكان «ميدان القتال الحرج بالنسبة لنا هو جبهة قناة السويس .. وكنا فى حاجة إلى الكثير من الحظ لانقاذ ماء وجهنا».

ولأول مرة كذلك عرف الاسرائيليون مرارة السخرية .. وشاعت نكتة بعد

حرب أكتوبر تقول: ان ميكرفون المطار الدولى فى تل أبيب لا يكف عن ترديد عبارة: «على آخر يهودى يغادر إسرائيل اطفاء الأنوار».

لقد كنا سعداء فى تلك الأيام ونحن نسترد أنفاسنا المقطوعة وثقتنا المفقودة .. كانت أغلى الساعات .. وأجمل اللحظات .. لم تكن لدينا سيارات فارهة .. ولا أجهزة تكييف .. ولا شرائط فيديو .. لم نكن نعرف مسابقات ملكات الجمال .. ولا معاطف الفراء .. كنا نملك احساساً مجنوناً بهذا الوطن .. وكنا نحتفظ فى أصابعنا بخاتم مصنوع من أجنحة الطائرات الاسرائيلية المتساقطة .. وكنا نهدى مثله لمن نحب .. وأصبحت هواية جمع نجمة داود المتساقطة من السماء هواية قومية .. وأصبح السفر إلى مدن القناة ـ المهدمة والمحترقة ـ نوعاً من الحج إلى أراض مقدسة .. تسكنها البطولة .. ويسيطر عليها الكبرياء.

وفى تلك الأيام امتنع اللصوص عن السرقة .. ومشت مصالح المواطنين فى دواوين الموظفين كالساعة .. وفاضت شرايين الدم بأنهار التبرع .. وتناول الناس على الإفطار والسحور أساطير الشجاعة التى لم تتوقف طوال أيام الحرب.

ان ما جرى فى ٦ أكتوبر ١٩٧٣ وضعنا فى حالة من النشوة القومية لا تحدث فى حياة الأمم إلا نادراً .. فجرت فينا كل ينابيع الجدية والشفافية .. وأضاءت فى نفوسنا كل المصابيح التى كانت مطفأة .. وغسلت أعماقنا من المحيط إلى الخليج .. ومن الوريد إلى الوريد .. ومسحت التراب والعفن والطحالب المتراكمة منذ عصور الهزائم من على عيوننا.

لقد امتلأنا بهذا الحدث العظيم الذى تغلغل تحت جلودنا واخترق عظامنا .. لكننا بمرور الأيام والسنوات رحنا ننساه .. وضعناه فى ثلاجة ليصبح متجمداً .. لم نعد نتذكره إلا فى ذكراه السنوية.

إن اكتوبر ليس مجرد أوبريت غنائى وانما حالة وطنية، وقومية اخرجتنا من الجليد إلى النار .. فلماذا نصر على العودة إلى الصقيع؟ .. لماذا لا نسترد تلك

اللحظات المدهشة التى حولت العرب جميعاً من البحيرات المغلقة إلى البحار المفتوحة بالكبرياء والانجاز والعنفوان؟.

لم تكن عيوننا بهذا الاتساع الذى كانت عليه فى تلك الأيام .. ولم تكن كرامتنا بهذا العمق كما فى تلك الأيام .. ولم تكن انجازاتنا أقوى فى أيام أخرى .. فهل نمسح الغبار المتراكم عن ذاكرتنا ومشاعرنا .. ونفهم ونستوعب القوانين التى اكتشفناها فى اكتوبر لنعيد اليها الصلاحية والاستعمال مرة أخرى؟.

إننى كثيراً ما تصيبنى الدهشة من فشلنا فى أشياء صغيرة .. مثل تنظيم المرور .. وتنظيم فصول الدراسة .. ورعاية المرضى فى المستشفيات .. وإدارة خدمة عامة .. أو تحقيق ربح فى شركة قطاع عام، وفى الوقت نفسه يسجل لنا التاريخ حادثاً مثل العبور شطب اسماءنا من فصيلة «الحمام الزاجل» وسجله فى قائمة «الفهود السود» وجعلنا ننتسب إلى نادى الأقوياء .. فلماذا اعتبرناه حالة عارضة .. ومؤقتة .. ورحنا نرقص التانجو .. ونتمايل فى الزار .. وندور حول أنفسنا حتى أغمى علينا؟.

ربع قرن مر على العبور .. جاءت سياسات وذهبت سياسات .. ولدت أجيال .. ورحلت أجيال .. وتغيرت الدنيا .. وتغيرنا معها .. ولكن .. يبقى قانون التحدى والنجاح الذى اكتشفناه فى اكتوبر سائداً .. سارياً .. فهو قانون مصرى خالص .. لا علاقة له بالعولمة .. والنظام الدولى الجديد .. والخصخصة .. والشرعية الدولية .. انه قانوننا الذى صنعناه بحبات العرق .. وقطرات الدم .. وشياط النار .. وتراثنا الحضارى العريق المعجون بتجارب مريرة .. فيها كل أنواع الاستعمار والاحتلال .. فيها كل أنواع الغبار والانتحار .. فيها الفرعونية .. والديكتاتورية .. والرأسمالية .. والاشتراكية .. والفاشية .. ورغم ذلك كانت مصر باقية .. انها عبقرية الإنسان والمكان .. الذى تجاوز أفعال ونكبات الزمان.

لقد وجدت أن من المناسب ان أكتب عن مرور ربع قرن على عبور أكتوبر ١٩٧٣ قبل الموعد بشهر تقريباً .. وقد كنت أتمنى أن أكتب عنه قبل الموعد بسنة ..

حتى نستعد لاحتفال من نوع خاص بهذا الانتصار الفريد فى تاريخنا الحديث .. لا مانع من الغناء والرقص والدراما .. وإن كنت أتمنى أن يكون ذلك فى الشوارع والميادين العامة .. لا مانع من الكتب والمذكرات والذكريات والأفلام .. وإن كنت أتمنى أن يشعر الناس بها .. بطبع كتب رخيصة .. وأفلام تسجيلية فى متناول الجميع.

لكن الأهم من ذلك أن يكون الاحتفال مناسبة لصحوة مصرية وليس مجرد عزف منفرد من بعيد نشاهده ثم ننساه .. هى فرصة لأن نعيد الجامعات والنقابات والأحزاب ومراكز الأبحاث صياغة قانون أكتوبر الذى نقلنا من الهزيمة إلى الكرامة.. وألغى إيماننا القديم بالرمزية والسيريالية السياسية إلى الواقعية.

إن لغة الفرح يجب أن تكون بمساحة الفرح .. والا تحول الكلام إلى رشوة علنية.. فحين تكون فى بلادنا مشاكل فإن اللغة يجب أن تمتلئ بالحلول .. وبالتالى لا يمكن أن تكون مفردات راقصات بالية .. لا يجب أن تكون لغة الاحتفال منفصلة عن لحم ودم ومتاعب هذا الوطن.. وإلا انفصل الناس عن الاحتفال.

لا نريد لغة احتفال تفقد واقعها .. وتضحك بشفتين من البلاستيك.. لا نريد لغة تتوه عما حولها .. وتفقد حواسها الخمس .. وتفقد القدرة على الفعل والانفعال.

نريد لغة احتفال متحفزة فى هذه المرحلة الساخنة من حياتنا .. تكون بحجم المتاعب والتحديات .. وقادرة على القيام بنوبات حراسة على طول شواطئ هذا الوطن .. وقادرة على فتح آفاق المستقبل أمامه.

هذه هى اللغة التى نريدها فى الاحتفال بمرور ربع قرن على العبور العظيم .. فلا يمكن فى الوقت الحالى للغة تتجمل وتضع المساحيق وتخضع لقواعد اللعبة الإعلامية.

٩ هــزذيــل الكــلب !

أجمل تهمة يمكن أن توجه إلى رجل هى أنه يحب ..

ولا فرق أن يكون الرجل الذى يحب غفيراً أو أميراً .. رئيس بلدية أو رئيس جمهورية ..

فالحب جزء من مكونات الدم فى عروق الرجل .. ولا يمكن أن ينزع الرجل قلبه ويضعه فى مغسلة أو يهوى عليه بمقصلة بمجرد أن يصبح حاكماً .. وإلا دفع الناس الثمن غالياً .. قسوة .. ووحشية .. ورهبة .. وليلاً أسود طويلاً .. وشمساً مخنوقة بالدخان والسحاب .. فصاحب السلطة العليا .. بلا قلب.

لكن المشكلة أن الأضواء الكثيفة .. والعيون المفتوحة .. والصور المتزمتة الشهيرة تجبر الحاكم على أن يغير تركيبة دمه .. فوراء كل حلم مخبر سرى .. ووراء كل حب جهاز تسجيل .. وسيارة مباحث .. ومندوب عن الموساد أو وكالة المخابرات المركزية الأمريكية .. مهمته أخذ الجيتار الذى يعزف عليه الحاكم العاشق .. ومصادرة قصائد الحب التى تطربه .. وتحويل الموسيقى الرومانسية التى تذكره بحدوده الإنسانية إلى أحراز .. وجنايات .. فيبدأ فى تحنيط مشاعره .. وتجميد

عواطفه.. وينتهى إلى أن يصبح تمثالاً من الشمع والرخام.

وقد كنت أتمنى أن يكون الرئيس الأمريكى بيل كلينتون عاشقاً .. لا «بلاى بوى» .. كنت أتمنى أن تكون علاقته بالساحرة الصغيرة مونيكا لوينسكى علاقة عاطفية لا نزوة جنسية .. تدبرها أو على الأقل ترصدها الأجهزة الاستخبارية .. فلو كان عاشقاً لما سيطروا عليه .. وما كانوا أغرقوه فى «النفتالين» اليهودى حتى تفوح رائحته نفاذة .. ليظل هو ورجاله وساساته وخزائنه وجيوشه تحت السيطرة.

إن الدنيا رقصت من الفرح لأن مانديلا يحب .. لم يأخذوا عليه هذا الحب .. لم يعتبروه نهاية العالم .. أو بداية سقوط جمهوريته .. على العكس اعتبروا ارتباطه بامرأة ولادة موسيقية ملونة .. وعناقاً رائعاً بين عرش الهوى وعرش السلطة.

وقد حاول اليهود- فى ربيع ١٩٧٤ بعد شهور قليلة من عبور أكتوبر- أن يلعبوا نفس اللعبة مع الرئيس الفرنسى فى ذلك الوقت فاليرى جيسكار ديستان عقاباً له على انحيازه للعرب .. فكشفوا عن علاقة عاطفية كان ينتمى إليها .. ويسعد بها .. وراحوا يضربونه فى أعز ما يملك .. مشاعره.

وأتذكر أن نزار قبانى سيد شعراء هذا الزمان أرسل إليه ورقة فى لون قلب حبة الفستق عليها خطاب شخصى تمنى فيه أن تكون تهمة الحب صحيحة .. وأن يكون «الشعر الأشقر الذى يستريح عليه من هموم الرئاسة حقلاً حقيقياً من الذهب والقمح» .. ثم .. تساءل: «لماذا لا يفهمون أن قصر الاليزيه ليس (مدرسة داخلية) يسجن فيها الرؤساء صيفاً وشتاء، وليلاً ونهاراً، ولا يُسمح لهم بالخروج إلا برفقة الناظر .. أو الراهبة؟».

وتساءل: «هل يصبح رئيس الجمهورية بمجرد انتخابه شمعداناً من فضة نعلقه فى رقبته بسلسلة فى سقف قصر الرئاسة ولا نسمح له بأن ينزل من السقف إلا بعد موته أو عزله أو انتهاء ولايته؟» .. ثم .. طالبه بألا ينزعج من أقاصيص الهوى

التى فصلها اليهود عليه كل يوم حسب اتجاه الريح فى السياسة الخارجية الفرنسية».

وعرفت من نزار أنه تلقى شكراً من قصر الإليزيه «على هذا الدعم العاطفى المباشر» .. ومع الشكر وردة حمراء .. وعبارة بخط الرئيس ديستان تؤكد أن معركة العشاق فى العالم معركة واحدة .. وقضية واحدة .. و «الجمهورية التى يحاولون تأسيسها جمهورية واحدة».

لكن .. اللعبة التى لعبها اليهود مع الرئيس كلينتون مختلفة .. فالجريمة جنسية لا عاطفية .. والمؤامرة محبوكة ومتقنة .. فهم يعرفون عنه كل شئ .. من الداية إلى الرئاسة .. يعرفون طفولته القلقة .. وتربيته مع رجل غريب غير الأب .. ودرجات امتحاناته فى الحضانة .. نزواته المجنونة التى انساق وراءها منذ المراهقة .. ولعابه الذى يسيل على أى فستان ضيق يمشى على قدمين .. فالملفات محفوظة .. ونقاط الضعف ظاهرة .. وليس من الصعب دفعه إلى الهاوية .. وكانت الهاوية ساحرة وجذابة ومغرية .. واسمها مونيكا ليوينسكى .. ولم يكن من الصعب التدبير والتوريط وجمع الأحراز والأدلة أولاً بأول .. بما فى ذلك الثياب التى جمعوها على الفور والتقطوا منها آثار الفوران والعنفوان وأرسلوها إلى المعامل الجنائية .. والطب الشرعى.

ولأنهم يقتلون القتيل ثم يمشون فى جنازته فقد سارعوا إلى تقديم القضية قبل أن تبرد فى فيلم سينمائى اختاروا له عنواناً مناسباً هو «هز ذيل الكلب» .. دلالة على فرح الكلب وهز ذيله كلما صادف فى الطريق أنثى من نوعه .. مهما كانت .. وهى جرأة مذهلة فى توقيت الفيلم .. والعنوان الذى أتصور أنه تجاوز كل حد متوقع.

والفيلم أخرجه بارى ليفنسن ببساطة وسلاسة ودون لف ودوران .. فهى يحكى قصة رئيس أمريكى قاربت فترة رئاسته الأولى على الانتهاء .. ويستعد سراً بخطة ترشيح نفسه لفترة رئاسية أخرى .. وأخيرة .. لكنه فجأة يجد أسرار علاقته الجنسية

بموظفة جميلة فى البيت الأبيض على صدر الصفحات الأولى للصحف الكبرى .. وهو ما يضعه فى مأزق سياسى حرج لا يهدد طموحاته القريبة فقط وإنما وجوده الحالى فى الحكم أيضاً.

ويبدأ رجال الرئيس فى السعى لانقاذه من الورطة بأساليب متنوعة «تتعاون فيها قوى سياسية واقتصادية وعسكرية لحماية مكاسبها ومصالحها فى البيت الأبيض قبل حماية الرئيس الذى لا يزيد فى كثير من الأحيان على واجهة لجماعات شرسة» .. إن الرئيس هنا مجرد دمية فى مسرح للعرائس .. يحركها بأصابعهم هؤلاء الذى يحركون أيضاً المسئول الإعلامى للبيت الأبيض (يلعب دوره روبرت دينرو) الذى يريد تحول أنظار الرأى العام عن الفضيحة باختلاق مصيبة أكبر ولو وهمية ينشغل الناس بها فينسون مغامرات وغراميات الرئيس.

ويستدعى المسئول الإعلامى خبيراً من هوليود فى الخدع السينمائية (يلعب دوره داستين هوفمان) ويطلب منه فبركة معركة نووية وجرثومية وتفجيرات وقتل فى ألبانيا .. بحيث تتحول هذه المشاهد إلى مواد إعلامية تثير مشاعر الناس وغضبهم وتوزع على وسائل الإعلام بعد أن تدفع الحكومة أموالاً طائلة لتمريرها .. وينخلع قلب الرأى العام مما يراه من دمار وخراب .. ويصبح جاهزاً للتحول عن الفضيحة .. بل ويكون مستعداً لتجديد ثقته بالرئيس الذى يتدخل فى الوقت المناسب ليعلن الحرب على الجماعات الإرهابية التى فعلت كل هذه المآسى .. وأمام هذا القرار «البطولى» يتحول الرئيس إلى نجم سياسى وبطل قومى، ويسترد سلطانه الذى كاد يهوى فى الفضيحة.

إنه الإعلام الذى يفبرك ولا يتجمل .. ويعبث بعقول الناس .. ويحبسها فى قبور رخام .. ويجعل الفاسق زعيماً جماهيرياً .. والفاسد نصف إله يعبده الشعب .. والرئيس «الدون جوان» منقذاً للبشرية وحامياً للسلام.

واللافت للنظر هنا هو اختيار البانيا تحديداً .. فى وقت تجرى فيه حرب أهلية داخلها .. ومذابح عرقية .. تحصد فيها أرواح المسلمين بالجملة والتقسيط .. فى حين يرتدى الضمير العالمى طاقية الاخفاء.

واللافت للنظر أيضاً هو الإشارة الخفية لمنظمات «الجهاد» المتطرفة التى حولت ألبانيا إلى فحم مشتعل فى ليالى المعارك والمذابح .. وهى المنظمات الإرهابية التى يقرر الرئيس الأمريكى إعلان الحرب عليها لإنقاذ العالم منها .. حسب سيناريو الفيلم.

لكن .. المذهل أن يأتى هذا الفيلم فى هذا الوقت بهذه المعالجة وآثار الانفجارين فى سفارتى الولايات المتحدة الأمريكية فى نيروبى ودار السلام لم تخفت بعد .. والجثث التى تحت الأنقاض لا تزال الكلاب البوليسية المستوردة والمدربة فى اسرائيل تبحث عنها .. إن الانفجارين جاءا والرأى العام الأمريكى والكونجرس والبيت الأبيض مشغولون بفضيحة كلينتون الجنسية .. وفى الوقت الذى كانت فيه مونيكا لوينسكى تعترف بتعدد اللقاءات الجنسية بينها وبين الرئيس الأمريكى كانت ساعة الصفر للعملية تقترب .. وبعد ساعات دوت الانفجارات فى عاصمتى كينيا وتنزانيا .. ودون حاجة إلى خبير فى الاعلام والفبركة والخدع السينمائية والمشاهد التليفزيونية الوهمية تحول الرأى العام الأمريكى بالكامل وفى ثوان من الانفجارات الجنسية إلى الانفجارات الأفريقية .. فتراجعت صورة مونيكا وبرزت صورة بن لادن .. واختفت الفضيحة ولو مؤقتاً مفسحة المجال لأوجاع الكرامة الأمريكية التى تبعثرت فى عز النهار!.

وعلى ما يبدو ليست ألبانيا ـ التى تجرى فيها بعض أحداث الفيلم ـ بعيدة عن مسرح الأحداث التى جرت فى الواقع .. فقد نشرت الصحف الأمريكية أن أجهزة المباحث الفيدرالية تدخلت فى ألبانيا وقبضت على بعض زعماء «الجهاد» المتطرفين

وسلمتهم إلى بلادهم .. وهو ما جعل هذه المنظمة الإرهابية - الأشبه بتنظيم دولى - تقرر الانتقام .. وهددت فى بيان لم يعره أحد اهتماماً بنسف أهداف أمريكية فى بعض البلدان العربية .. وكان ذلك على سبيل التمويه والتضليل والخداع كما اتضح فيما بعد .. فبينما تركزت الحماية على السفارات الأمريكية فى الشرق الأوسط كانت أطنان المتفجرات تُدس فى جدران سفارتى الولايات المتحدة فى كينيا وتنزانيا .. وفى أيام قليلة عقب الحادث كانت أرقام الضحايا بالآلاف.

ولو صحت التكهنات التى شاعت عن تورط التنظيمات الدينية المتطرفة فى الحادثين فلابد من الاعتراف بأن الضربة كانت موجعة إلى حد الصراخ والاغماء .. وانها جرت بمناورة ومراوغة وصلت إلى حد العمى .. كذلك فإنها تمت بتدبير محكم .. محترف .. فى أماكن غير متوقعة .. وفى بلاد يستشرى فيها الفساد على جميع المستويات ويسهل فيها شراء الذمم بأرخص الأسعار .. ولا يمنع ذلك أن الأهداف الأمريكية هناك كانت مكشوفة .. وأكثر من ذلك فإنه لا أحد على ما يبدو كبير على الارهاب .. فالكل أمامه يمكن أن يكونوا ضحايا.

على أن الأكثر أهمية والأشد خطورة أن الذين نفذوا العملية هم تلاميذ مجتهدون للمخابرات المركزية التى جندتهم ودربتهم واستخدمتهم فى أفغانستان .. وهم الذين نعرفهم بالأفغان العرب .. وهؤلاء حسب مصادر المخابرات الأمريكية وباعترافها لا يقل عددهم عن ٢٠ ألف شاب .. عاد بعضهم إلى بلاده للقيام بعمليات الاغتيال والتفجيرات وقيادة السيارات المفخخة .. والبعض الآخر استقر فى الدول الديمقراطية متمتعاً بحقوق اللجوء السياسى .. مشكلاً ما يُسمى التنظيم الدولى للجماعات المتطرفة.

وقد شربنا من كأس الأفغان العرب فى مصر والجزائر وتونس والسعودية .. ويبدو أن الوقت قد حان ليعرف «الأمريكان» مدى المرارة التى تجرعناها .. وليعرفوا ما جنته أيديهم .. إنهم لم يقدموا زهرات حمراء وأقماراً بنفسجية وحروفاً تنبض

كقلوب العصافير الصغيرة .. وإنما قدموا قنابل ونيراناً حارقة وطرقاً متنوعة للموت والخراب.

كما أنهم لم يصدقوا أن الرهان على التطرف هو رهان فاسد .. خاسر .. وان الارهاب الذى قد يأخذ شكل مسدس فى أيديهم قد ينقلب إلى جمرة حمراء .. تحرقهم وتشويهم وتخلف وراءها الشياط والغبار .. فالارهاب هو الارهاب محكوم عليه بتكوينه وخصائصه .. ولن يغيرها إذا ما انتقل من خانة الصديق إلى خانة الخصم أو العكس .. ان الذى يركب الارهاب كالذى يركب الأسد .. يخيف الآخرين بزئيره وأنيابه ومخالبه .. لكنه لا يستطيع أن ينجو منه .. لقد ركب الأمريكيون الأسد.. ولعبوا بورقة عمر عبد الرحمن وأفغانستان .. وفتحوا مكتباً رسمياً لجبهة الانقاذ الجزائرية فى نيويورك .. وكان فى الخارجية الأمريكية من يدعم التيارات المتطرفة، ويعتقد هؤلاء أنهم يركبون على موجة المستقبل فى الشرق الأوسط .. ولم يستوعب هؤلاء الدرس الذى دفع الرئيس أنور السادات حياته ثمناً له علنا أمام كاميرات البث المباشر .. فقد كان اغتيالاً على الهواء .. ولم يستوعبوا ما جرى وما يجرى الآن فى أفغانستان.

وليست مصادفة أن تتداخل وتتنافس وتتزاحم أخبار ما يجرى فى أفغانستان مع أخبار التفجيرات فى كينيا وتنزانيا .. فالخميرة واحدة .. والعجينة واحدة .. وفطيرة الإرهاب التى يقتسمها العالم .. الغنى والفقير، القوى والضعيف، المتطرف والمعتدل، المسلم وغير المسلم .. واحدة.

إننى أؤمن بأن الناس والسماء أصدقاء .. لا سماسرة بينهما ولا وسطاء.

ان السماء تبكى إن بكى البشر، وتضحك ان ضحكوا وتزداد نجومها بريقاً إن عشقوا .. ومن ثم لا تفسير ولا تبرير لما يجرى تحت غطاء السماء فى باكستان أو لبنان .. فى تنزانيا أو ألبانيا .. فى كينيا أو الجزائر.. لا تفسير ولا تبرير لما يفعله

الذين يدعون أنهم أولياء الله .. ووكلاء الله فى الأرض .. انهم يصرون على الحياة بلا عيون .. فيقتلون .. ويذبحون .. ويحرقون .. ويفجرون .. ويخربون!.

لكن .. إذا كنا نرفض ذلك فنحن أيضاً نرفض الذين حكموا العالم بعين واحدة .. فقلبوا من لا يعجبهم .. وحاصروا من لم ينفذ ارادتهم .. وعاقبوا من لم يمش على هواهم .. ووضعوا كل البيض في سلة واحدة .. فكان من السهل على الإرهاب أن يكسره فوق رءوسهم.

نحن لا نقبل الارهاب باسم الدين ولا الارهاب باسم النظام الدولى الجديد .. لا نقبله باسم الجهاد ولا باسم التبعية .. لا نقبله باسم أسامة بن لادن ولا باسم كوفى عنان.

وإلى أن يقتنع «الأمريكان» بأنهم مثل باقى خلق الله فليس أمامنا سوى أن نشاهد مسلسل الفضائح الجنسية .. مقطوعاً من باب الإثارة والتشويق بأكشن التفجيرات الإرهابية .. ولا يزال العرض مستمراً.

١٠ موسم البكاء على الملك فاروق !

فى الساعة السادسة من مساء يوم السبت ٢٦ يوليو ١٩٥٢ غربت شمس الاسكندرية .. وغربت معها الملكية فى مصر .. فقد أبتلع البحر والظلام الملك فاروق وهو على ظهر اليخت الرسمى «المحروسة» متوجهاً إلى منفاه فى إيطاليا بعد تنازله عن العرش الذى تربع عليه ١٦ سنة.

كان يرافق فاروق بناته الثلاث .. فريال وفوزية وفريدة .. وزوجته الأخيرة ناريمان التى كانت تحمل طفلها الرضيع أحمد فؤاد الثانى الذى أصبح ملكاً .. لكن لم يكن يملك .. ولا يحكم .. وفى مخازن السفينة كانت ٢١٧ حقيبة فيها ملابس الملك وأمتعته ومجوهراته وتحفه وشيكاته وأشياؤه الثمينة.

ان هذا المشهد الشائع هو مشهد النهاية السياسية للأسرة المالكة فى مصر الذى توقفنا عنده دون أن نتابع بعده رحلة هذه الأسرة فى منفاها وما الذى جرى لها .. إن معظم أسرار ما جرى هناك كان مجهولاً لسبب هو أنه لا أحد كشفه لنا.

وقد شاءت الأقدار أن التقى منذ سنوات بالشاهد الوحيد على ما جرى لفاروق وأسرته فى المنفى .. هو أمين فهيم سكرتير الملك هناك.. وقد أمدنى بكثير من الوثائق وكشف الكثير من الأسرار وأنا أعد كتاباً عن آخر ملوك مصر .. الملك الرضيع أحمد فؤاد الثانى.. ثم تدفقت الحكايات والذكريات راسمة صورة لا اتصور

أننا نعرف ملامحها ورتوشها وخباياها .. وأتصور أنه قد حان الوقت لأن نعرفها.

وأمين فهيم رجل أنيق، لغته راقية، ذاكرته قوية، رغم أنه من مواليد ٢٤ ديسمبر ١٩١١ وقد بدأ عمله فى القصر الملكى عام ١٩٣٢ مع زكى الإبراشى ناظر الخاصة الملكية ثم نقل إلى ديوان الملك وأصبح من المقربين إليه الذين يكلفهم بمأموريات خاصة بعيداً عن رئيس الديوان.. وأشهر هذه المأموريات تدريب ناريمان فى ايطاليا على قواعد البروتوكول الملكية قبل أن تصبح ملكة .. وقد دخلت روما سراً باسم سعاد صادق .. وفى نهاية الأربعينيات نقل أمين فهيم للعمل فى سفارة مصر بايطاليا، وبعد الثورة أختير رسمياً بقرار من على ماهر ليكون سكرتيراً لفاروق فى المنفى.

كان آخر ما قاله فاروق لمحمد نجيب قبل أن يغادر مصر عبارة غامضة حيرت الجميع .. قال: «أنتم سبقتمونى إلى ما كنت أريد أن أفعله».

ويكشف على أمين سر هذه العبارة قائلاً: إن الملك فاروق فى بداية الخمسينيات أحس بحالة زهق وهم فى الاسكندرية، فأمر الحرس أن يبتعد عنه، وقرر أن يمشى بمفرده فى عربة حانطور على كورنيش البحر، وطلب من «العربجى» أن يتمهل .. ثم فتح حواراً معه:

الملك: ما رأيك فى الملك فاروق؟

العربجى: الله يرحمه كان ابن .....

الملك: وابنه؟

العربجى: ألعن منه.

لم يكن الرجل يعرف حقيقة الراكب .. وإن كان الراكب قد فهم حقيقة نفسه .. وقال لسكرتيره الخاص: أنا أبتديت أفهم أنه لازم أسيب البلد.

لقد سمع بأذنه كراهية البسطاء له فقرر الفرار .. ومنذ ذلك الوقت وهو يحول أمواله وسبائك الذهب إلى سويسرا.

وفيما بعد .. فى المنفى قال فاروق أيضاً: «إن ضباط الجيش سبقوه بستة أشهر فقد فكر فى تجهيز اليخت «فخر البحار» بكل ما هو ثمين ويأخذ أولاده وتحت زعم أنه سيقوم برحلة بحرية، يذهب ولا يعود».

لقد فكر فاروق ونفذ ضباط الجيش .. وغاب ملكه فى البحر مع غياب شمس يوم رحيله .. وقد اختار فاروق الرحيل إلى ايطاليا .. فهو يعشقها .. وهى منفى جده الخديو اسماعيل .. والمكان الذى تربى وتعلم فيه أبوه الملك فؤاد .. وهو يجيد لغة أهلها .. ويعشق طعامها ونساءها .. نزل الملك فاروق من اليخت وهو يرتدى بدلة بنية اللون .. فلا يجوز له الآن أن يرتدى زى الأدميرال البحرى الذى خرج به من الاسكندرية .. وكانت ناريمان ترتدى فستاناً لونه بنى أيضاً .. وكان أول ما قاله بعد أن صافح عبد العزيز بدر سفير مصر فى روما: «خرجنا من مصر بالهدوم اللى علينا».

وبكى جلال علوبة قائد «المحروسة» والملك يودعه بالأحضان .. وبكى الملك كذلك .. وأغمى على اثنين من البحارة .. وجاء قارب بخارى صغير ليحمل فاروق وأسرته وحاشيته إلى جزيرة كابرى .. وقبل أن يصل فاروق إلى الشاطئ خلع حذاءه وصلى ركعتين شكراً لله على نجاته .. ولكن سرعان ما واصل أشهر هواياته .. التهام الطعام .. ومطاردة النساء بمجرد استقراره فى فندق «بارادیزو» الساحر فى كابرى.

وقد وافقت الحكومة الإيطالية على منحه حق اللجوء السياسى بشرط ألا يقوم بأى نشاط سياسى .. وانتقلت العائلة المالكة من كابرى إلى بلدة «سانتا ماريللا» والتى تبعد عن روما بحوالى ١٧ كيلو متراً وتطل على البحر .. ولكن فاروق أحس بأنها غير آمنة فانتقل بعد شهرين إلى فيلا «دوسميث» .. فى ضاحية .. «جروتا فراتا» .. التابعة لبلدة «فرسكاتى» الشهيرة بالنبيذ وتبعد ١٠ كيلو مترات عن روما.

والفيلا كبيرة ترقى إلى مستوى القصر .. أمامها حديقة .. ومكونة من ثلاثة أدوار .. الدور الأرضى للاستقبال .. ويضم صالونات متنوعة الطراز وحجرة مكتب فاروق .. وحجرة مكتب سكرتيرة .. وصالة طعام .. أما الدور الثانى فيضم شقة

للملك وزوجته .. وشقة أصغر لسكرتيره .. والدور الثالث والأخير مخصص للأميرات والمربيات وفيه الجناح الخاص للصغير أحمد فؤاد .. وفى مبنى ملحق بالحديقة كان يعيش الحرس الألبان المسلحون بالبنادق والكلاب الشرسة .. والمعروف أن الملك كان يهوى إقتناء الأنواع النادرة من الكلاب والمسدسات والسيوف والخناجر وطوابع البريد.

وفى المنفى، واصل ممارسة هذه الهواية .. وأضاف إليها هواية تسجيل علاقاته النسائية فى مفكرة خاصة، وصفت بأنها «مفكرة الغرام»، سجل فيها المعلومات الأساسية عن «حريم» المنفى. وعكست هذه الهواية إحساساً هائلاً بالملل والفراغ .. فلا شئ آخر يستهويه .. لا القراءة .. ولا الرياضة .. ولا المسرح .. ولا المناقشات السياسية .. ولا تأمل التجارب التاريخية بما فى ذلك تجربته هو شخصياً.

وفى كل مساء كان يتوجه بسيارته إلى روما .. حيث يتناول عشاءه فى كافيه «دى بادى» وبعد العشاء كان يتردد على الملاهى الليلية بمختلف مستوياتها .. فقد كان زبوناً شهيراً فى «جيكى كلوب» وهو ملهى تحت الأرض مبنى فى أحد سراديب روما القديمة.

و «أوبن جيت» أو البوابة المفتوحة .. وهو ملهى يتردد عليه الصفوة .. و «البيجال» وهو ملهى متوسط المستوى .. بالإضافة إلى علب الليل الرخيصة المنتشرة فى شارع «فينيتو» أو شارع الدعارة الذى انتعش بدولارات جنود الجيش الأمريكى الخامس بعد الحرب العالمية الثانية.

وكثيراً ما كان يتردد على كازينوهات القمار الصيفية القريبة من ميدان «باريرينى» أنه الآن يقامر بأمواله فلا داعى للمجازفة .. كذلك فانه يقامر كشخص عادى لا كملك، كما كان فى مصر، حيث كان الأثرياء يتعمدون أن يخسروا أمامه ليحققوا مطالبهم بعد ذلك .. انها رشوة من نوع خاص .. ولا يمكن أيضاً أن يغش فى اللعب كما كان يفعل وهو فوق العرش.

وكما انخفض مستواه فى القمار انخفض ذوقه فى النساء.

كان مصدر الأعجاب به أنه ملك سابق .. وكان مدخله لكل امرأة عبارة واحدة أصبحت شهيرة فى كل ملاهى روما .. «آه لو رأيتك من قبل .. كنت جعلتك ملكة».

وقد كان فاروق يحضر النساء إلى بيته أحياناً دون مراعاة شعور زوجته.

أو كن يذهبن إليه فى شقة خاصة .. فى الدور الثالث .. فى أحد مبانى شارع «برونويوتس» وكانت تتكون من حجرتى نوم وصالون وحمام وإيجارها الشهرى ٢٥٠ جنيهاً .. وكان يدفع للمرأة ما بين ٢٠ و ١٠٠ جنيه حسب مستواها.

وكانت أولى عشيقاته .. شقراء أمريكية اسمها دورى .. أخذها فاروق من صديقها عازف البيانو الذى يعزف فى الملاهى الليلية .. وقد احتقرته فى البداية .. ووصفته بالسمين .. السخيف .. ولكن هداياه التى أغرقتها جعلته فى عينيها رشيقاً، خفيف الظل .. على أن ذلك لم يستمر طويلاً.. فبعد أن حصلت على ثمن سيارة، حملت أكوام الهدايا وسافرت إلى باريس ولم تترك له سوى صورة لها.

أما أشهر عشيقاته فهى ايرما كابيتش مينوتولو وهى ابنة سائق تاكسى، جميلة، كانت تحلم بأن تكون نجمة سينمائية، وقد انتقلت للاقامة معه فى بيته وراحت تتصرف فيه كملكة بعد أن فقدت ناريمان قدرتها على التحمل، وتركت فاروق وهربت إلى سويسرا.

لقد انفجرت المشاحنات بين فاروق وناريمان فور الاستقرار فى روما.. ووصلت إلى حد إهانتها أمام الخدم والمربيات .. كان يقول لها دائماً: «أنت جزمة فى رجلى» .. ثم وصلت الإهانة إلى الضرب .. ضربها بقبضة يده .. فسقطت على الأرض فاقدة الوعى وكادت أن تموت من الصدمة بالسكتة القلبية لولا أن سارع طبيب الضاحية لانقاذها.. وسيطرت عليه علامات الدهشة والاستنكار .. وخرج وهو فى حالة اشمئزاز قائلاً: «هذه هى المرة الأولى فى حياته التى يسمع فيها أن ملكاً ضرب ملكة .. علقة».

لكن فاروق لم يشعر بالخجل وقال لسكرتيره وهو يشعر بالانتشاء: «لعلها تستفيد

من هذه العلقة .. لقد أردت أن أعطيها درساً .. أظن أن هذه الضربة سوف تؤدبها.. أحسن طريقة لمعاملة الزوجة أن تضربها علقة».

ثم استطرد:

«أنا لو كنت ضربت فريدة علقة يوم الدخلة لما حدث الطلاق ولكانت زوجتى حتى الآن .. ولو أننى ضربت ناريمان ليلة الزفاف لمشت مثل.... ولكنها غلطتى أننى عاملت فريدة وناريمان كملكات .. فشعرت كل منهما أنها مثلى».

وقد اشتكت ناريمان لسكرتير الملك أمين فهيم قائلة:

- يصح يا أمين أن الملك يضربنى زى أى واحد فى الشارع ما يضرب مراته .. يصح انه كان حيموتنى .. كنت حاروح فى شربة مية.

- ثم قالت:

- أنا مش ممكن أقعد معاه .. لازم أمشى .. لازم أسافر.

- اهدئى يا مولاتى حتى نعرف كيف نفكر.

- أنا مستعدة أن أهدأ وأبقى وأسكت وأكتم الفضيحة .. ولكن بشرط.

- ما هو:

- أن يدفع الملك الثمن.

- ثمن العلقة:

- نعم (١٠٠) ألف جنيه.

ورفض فاروق أن يدفع .. فهددته بالفضيحة .. فقبل أن يدفع ٢٠ ألف جنيه .. فهزت ناريمان كتفيها قائلة: «أنا مابيعش ترمس».

واستسلم فاروق فى النهاية وحول المبلغ من حسابه إلى حساب ناريمان فى أحد البنوك السويسرية .. ولكن قال وهو يوقع خطاب التحويل:

ـ هذه عقلية كباريهات لا عقلية قصور .. يا سلام .. مائة ألف جنيه من أجل علاقة؟..

إن هذا تفكير راقصة لا تفكير ملكة.

واستقامت الأمور بينهما بعض الوقت ولكن ذلك لم يستمر طويلاً .. فذات ليلة كانا معاً في ملهى ليلي، ومشت تتبختر .. وفجأة ضج المكان بالضحك ولم تعرف السبب إلا بعد أن اكتشفت في مرآة الحمام أن فاروق علق على ظهرها ورقة كتبت عليها باللغة الإيطالية:

«ناريمان جارية فاروق» .. ومرة أخرى كاد قلبها أن يتوقف من الفضيحة.

وسافرت ناريمان إلى سويسرا وهناك قابلت أمها أصيلة هانم المعروف عنها سرعة التفوه بألفاظ حادة .. والتي وجدت أنه آن الأوان للتدخل .. فعادت هي وابنتها إلى إيطاليا وقبل أن يرحب بها فاروق وجدها تقول له باندفاعها الشهير:

ـ لا تؤاخذني يا مولانا .. نفرض لا سمح الله جرى لك حاجة .. مفيش ضمان لبنتي في المستقبل .. وثار فاروق:

ـ أنا لا أسمح بهذا الكلام .. كل كلامك أنت وبنتك فلوس .. عاوزين بس فلوس.

ويقول لي أمين فهيم إن فاروق استدعاه في هذه اللحظة وطلب منه.. «يشوف طلبات «الولية» دي» .. على حد تعبيره .. وكانت مطالب أصيلة هانم .. «الولية» .. الحصول على التاج الألماسي «دياديم» الذي أعطاه فاروق لناريمان يوم الزفاف .. وهدايا عقد القران وكلها تحت يد فاروق .. وكتابة خطاب إلى الحراسة في مصر لتسترد ناريمان مبالغ حسبتها الحراسة عليها وكان على فاروق أن يدفعها .. واضافت الأم: اما أن ينفذ الملك الطلبات واما أن تأخذ ابنتها معها .. لكن الملك وعد بالتنفيذ حتى تعود حماته إلى القاهرة .. ثم رجع في كلامه .. فاذا بالأم ترجع إليه وهي في شدة الغضب ولم تتردد هذه المرة في اهانته حسب رواية عم ناريمان الطيار مصطفى صادق كما نشرها جميل عارف في كتابه عن ناريمان .. ويمكن تلخيصها

على هذا النحو .. الذى يمكن وصفه بأنه «فاصل» من الردح الملكى:

أصيلة: أنت «واطى ودون» وعمرك ما تعرف الأصول وأنا عاوزة بنتى معايا.

فاروق: مفيش مانع .. بس اسكتى وبلاش فضايح.

أصيلة: مش حاسكت إلا إذا أخذت بنتى معايا.

فاروق: أخرسى .. أنا مش عاوزك تتدخلى فى شئونى.

أصيلة: هو أنت أخذت البنت علشان تبهدلها فى الغربة .. الحق عليها اللى سافرت معاك واحدة غيرها كانت سابتك وقعدت فى بلدها.

فاروق: هو أنا عملت إيه!

أصيلة: ولا حاجة يا سى فاروق كان ناقص تعلقها من شعرها وتنزل فيها ضرب.. كفاية اللى أخذته على وشها.

فاروق: أسكتى أحسن لك .. يا أمين شوف الست دى عايزة ايه .. يا ناريمان خللى الولية أمك تسكت أحسن أوريها شغلها.

وانتهت المشاجرة بسفر ناريمان وأمها .. وفى القاهرة رفعت ناريمان قضية طلاق .. وحصلت عليه بعد أن تنازلت عن النفقة وحضانة الطفل.

وعاش فاروق نفس الحياة حتى مات .. على هذا النحو من الفساد.. والانحلال.. دون أن يضيف إلى بلاده أى شئ .. وقد وجدت أن من المناسب رواية هذه القصة حتى يهدأ ـ ولو قليلاً ـ أعضاء جمعية البكاء على العصر الملكى .. والذين يمارسون نشاطهم فى موسم الصيف .. موسم الهجوم على ثورة يوليو.

١١ حكام يقرأون الفنجان !

فى لحظات القنوط والهبوط والسقوط يبحث الإنسان عن الأمان فى سحب البخور .. وخيوط الدخان .. يبحث عنه فى قاع فنجان.

فى لحظات الخواء والفراغ وموت الرجاء يهبط الإنسان إلى العالم السفلى ليقرأ الطالع .. ويهزم الواقع .. ليكشف المستور بين السطور تراجع.

فى لحظات التناقض والإضطراب والإختناق والخوف من المجهول، ومن المعلوم يندفع الإنسان على طرق الخرافة السريعة موهوماً بتحول الكلمات إلى نبوءات .. ومعجزات .. وعندما يعود إلى واقعة «المر» تصبح الدقائق حبلى بالإنتظار .. وتصبح النجاة فعل إنتحار.

لا يوجد شخص واحد فى العالم لم يقرأ الطالع .. إن كتب الأبراج توزع أكثر من الكتب المقدسة .. حوالى ٥٠٠ مليون نسخة سنوياً .. وعدد العرافين المسجلين فى جمعيات رسمية يزيد على مليونى عراف .. وشخص واحد من كل عشرة أشخاص يذهب إلى منجم فى أكثر دول العالم ايماناً بالعلم .. بريطانيا والمانيا وفرنسا .. وفى قناة أوروبا الأولى برنامج تليفزيونى شهير اسمه «مدام سولاى» وهو اسم عرافة تقرأ

النجوم وتتلقى ١٥ ألف رسالة ومكالمة هاتفية يومياً على الأقل .. وتكسب فى الأسبوع ما يكسبه رئيس الإتحاد الأوربى فى عام.

وأنا أفهم أن يحتفظ الناس بصور الخرافة فى طيات ثيابهم وأن يمشوا كالمساطيل وراء الدجالين والمشعوذين فهم فى حاجة لتسديد «كمبيالات» الأحزان حتى لا يشهروا إفلاسهم المادى والعاطفى، فنحن فى زمن لا عمر فيه للأشياء الجميلة .. فكلها هشة وسريعة الكسر .. ونحن فى زمن الحق والعدل والصدق والحب والحلم فيه أسماك ميتة .. زهور من حجارة .. أنا أفهم ذلك .. لكن .. لا أفهم أن يستسلم بعض حكام العالم لهوس الخرافة .. أن يبحثوا هم أيضاً عن نجم غير معروف .. وعقل غير مألوف .. ومصير غير مكتوب.

وقد ظهرت على شاشة «الأنترنت» صفحات مثيرة لكتاب تحت الطبع لأشهر منجم فرنسى معاصر هو «أندرية ياربو» يكشف فيه أسرار هؤلاء الحكام الذين استبدلوا المستشارين بالمنجمين .. وخبراء العولمة والإستراتيجية بخبراء البلف والتهويش.

إن الرئيس الأمريكى الأسبق رونالد ريجان كان من أشهر مجانين التنجيم .. وقد عين عند توليه الرئاسة فى عام ١٩٨٠ ثلاثة منجمين ضمن مستشاريه الرسميين .. ولم يأخذ أى قرار دون الرجوع إليهم .. وبناء على نصائحهم ساند تانكر نيافيز فى إنتخابات الرئاسة فى البرازيل .. وعندما التقيا فى البيت الأبيض فى عام ١٩٨٥ أتجه ريجان إلى يدافيز .. أول رئيس برازيلى مدنى بعد ٢١ عاماً من الحكم العسكرى - قائلاً: «لقد سمعت عنك كلمة من شخص ما جعلتنى أتحمس لك كثيراً» .. ولم يقل ريجان أن هذا الشخص هو العراف دانى توماس أقرب مستشاريه إلى عقله.

ولم ينافس ريجان فى الخرافة سوى زوجته نانسى .. أنها محكومة بالخرافة «كما هولندا محكومة بالبحر، وكما بريطانيا محكومة بالبرد، وكما قمم جبال الهملايا محكومة بالجليد» على حد وصف عرافتها «الملاكى» جوان كيجلى التى فضحتها فيما بعد فى كتاب كشفت فيه: أن نانسى ريجان استوردت مشعوذاً من الهند، صنع

لها حجاباً، حاولت أقناع زوجها بأن يعلقه فى رقبته، وعندما فشلت وضعته تحت مخدته.. مثلما فعلت السيدة برلنتى عبد الحميد مع المشير عبد الحكيم عامر .. حسب ما نشره عبد الله إمام فى كتابه: «عامر وبرلنتى» وفى إحدى القضايا الشهيرة أنها كانت تذهب للعرافين لكى يعملوا للمشير «عملاً» ويكتبوا لها أحجبة تضعها تحت «مخدة» المشير الذى كان يعرف تصرفاتها بل أنه كان أحياناً يتتبعها فى طريقها لأحد العرافين فى الجبل بسيارة جيب من سيارات القوات المسلحة وليس من الصعب بعد ذلك أن نعرف لماذا هزمنا فى يونيو ١٩٦٧ ؟.

وقد اختار منجمو ريجان نائبه جورج بوش بحسابات الأبراج ولم يتردد بوش فى استشارة النجوم التى حددت له موعد توقيع معاهدة تدمير الأسلحة النووية مع الرئيس السوفيتى ميخائيل جوربا تشوف فى الساعة الواحدة والنصف ظهراً فى يوم ٨ ديسمبر.

ولو صدقنا أندرية باربو فإن بوش لم يقرأ كتاباً واحداً طوال مدة رئاسته الا فى الخرافة التى كان يصفها اللعبة المستحيلة عبر القرون، وكان يصفها بالوحش الجميل الذى كان يخرج لسانه لجميع صياديه.

وقد استسلم لهذا الوحش الجميل الرئيس الفرنسى فرانسوا ميتران الذى كان يستفسر عن أبراج زعماء العالم قبل مقابلاتهم .. وتوقف طويلاً عند صدام حسين بعد احتلاله الكويت .. وطلب تقريراً دقيقاً عنه من عشرة منجمين .. وبعد أن انتهى من قراءته قال: إن هذا الرجل من برج نارى وهوائى وترابى معاً .. فهل يشعل الحرائق ويثير العواصف ويغطى الدنيا بالغبار .. «انه من برج النحس».

ولم يوافق الرئيس الروسى بوريس يلسين على إجراء جراحة فى القلب إلا بعد استشارة جورجى روجوزيم وهو جنرال سابق فى المخابرات، اعتزل التجسس وتفرغ لفك طلاسم النجوم.

ولكن .. المؤكد أن يلتسين أقل جنوناً بالنجوم من ملك فرنسا لويس الرابع عشر

الذى كان يجبر العرافين على البقاء معه فى غرفة النوم ليحددوا له الوقت المناسب للإنجاب .. وهو ما كان يفعله أيضاً الرئيس الأوغندى الأسبق عيدى أمين .. الذى أطلق الرصاص على أشهر السحرة فى بلاده عندما أخطأوا فى نوع المولود الذى كان ينتظره من إحدى زوجاته.

وأختفى وراء الشمس العراف الخاص بالرئيس الاندونيسى الأسبق سوهارتو عندما سمع منه: أنه لن يبقى فى السلطة .. وأنه سيموت مسموماً .. إن من الصعب على بعض الحكام أن يكتشف فى أى منطقة من مناطق اللون هو موجود .. فى منطقة الأحمر .. فى منطقة الأسود.. وفى اللحظة التى يختصر فيها الحاكم مساحة بلاده لتصبح أصغر من قمحة لا ينفع معه كل المنجمين والعرافين والمشعوذين.

إن الرئيس السودانى الأسبق جعفر نميرى حالة تستحق الفحص والتأمل .. لقد كان الوحيد الذى حكم السودان وفهم تنوعه الثقافى والحضارى والدينى .. ثم أنه عاش حياته بالطول والعرض وملأ الدنيا حيوية .. لكنه فجأة .. فى ١٠ يونيو ١٩٨٤ قرر تعديل الدستور ليصبح إماماً مدى الحياة لا تجوز مساءلته أو محاكمته .. واعتبر من ينقض البيعة للإمام خيانة عظمى .. وراحت محاكم الطوارئ تجلد وترجم وتقطع الأيدى دون الالتزام بالشروط اللازمة التى فرضها الشرع .. ولم يفهم أحد سر هذا الانقلاب الحاد فى شخصيته .. وتنوعت التفسيرات السياسية والنفسية .. لكنها لم تصب كبد الحقيقة .. والحقيقة أنه كان يتوق إلى الإنجاب .. إنه بالرغم من كل ما يملك من سلطة وثروة كان يشعر أنه فى حاجة إلى طفل .. لكنه لم يستطع تحقيق هذه الأمنية الغالية.

إننا لا نكشف ذلك من باب التطفل .. أو من باب التدخل فى الحياة الخاصة .. وإنما لإستيعاب التاريخ .. فأسرار الحاكم الشخصية تؤثر فى قراراته .. وقراراته تؤثر فى ملايين من الناس لا ذنب لهم.

لقد شاءت إرادة الله أن تحرمه من نعمة الأطفال .. لكن بعض المنجمين

والمشعوذين نجحوا فى اقناعه بأن السبب هو غضب الله عليه.. وأنه لو عاد إلى الله سيمنحه ما يريد .. وضعوا أيديهم على نقطة ضعفه.. وتحولت النقطة إلى ثغرة .. والثغرة إلى بوابة دخل منها حسن الترابى الذى وجد أنه حان الوقت لأن يضع الرئيس فى جيبه .. وراحوا يلعبون على أوتاره المشدودة .. وعزفوا له لحن «الورع» .. ثم راحوا يغذونه بأضواء النيون التى رسموا بها صورة لم يستطع مقاومة إغرائها .. صورة الإمام الذى يرتدى أبيض فى أبيض .. وعلى رأسه عمامة خضراء .. وتبتعد عنه جهنم الحمراء .. كما قلت من قبل.

إنها الصورة التى أقنعوه بأنهم يرونها له فى المنام كل ليلة .. وظلوا على هذا النحو حتى سيطروا عليه .. وتمكنوا منه .. وفى اللحظة المناسبة قالوا له إن من الممكن أن يحققوا حلمه فى الإنجاب بعد أن تلقوا البشارة والاشارة .. وحددوا فتاة بعينها، وقالوا انه لو تزوجها هى بالذات سينجب وكاد أن يستجيب ويقع فى الشرك لولا أن حذره أحد المقربين منه وصارحه بحقيقة مرة وكان ذلك فى حضور زوجته السيدة الفاضلة بثينة أبو الحسن.

وأغلب الظن أن فى أعماق نميرى مساحة لا بأس بها لتقبل الأمور غير المرئية التى تتجاوز حدود العقل .. وقد سمعت خلال سنوات حكمة أساطير .. وأساطير أحاطت به .. منها أنه وهو ضابط صغير فى جنوب السودان فوجئ بشخص يظهر له من بين الأشجار ويتنبأ له بالجاه والسلطان .. وكما ظهر هذا الشخص فجأة .. أختفى فجأة.

وبعد فترة من الزمن سافر نميرى من جوبا إلى الخرطوم وهو غاضب من قيادته فى الشمال لأنها لم تستجب لمطالب رجاله فى الجنوب .. وفى معسكر «الشجرة» .. مقر القيادة .. لم يتحمس أحد لهذه المطالب.. فكان أن سعى نميرى إلى تغيير القيادة بتحريك عدد من الدبابات، ونجح انقلابه .. وساعده على ذلك الطقس الحار فى الخرطوم .. الذى لا يطاق فى شهر مايو .. والذى يدفع معظم

المسئولين للسفر خارج البلاد .. ويدفع غيرهم للكسل والاستسلام .. وهكذا أصبح نميرى على رأس السلطة فى السودان.

وتمضى الأسطورة تقول: إنه فوجئ بعد أن تولى السلطة بالرجل الذى ظهر له فى الجنوب، يظهر فى بيته من جديد .. وقبل أن يختفى ترك «عصا» أقنع نميرى بأن استمراره فى الحكم يرتبط بسلامتها والحفاظ عليها .. وفيما بعد قيل انه كان يستعد للنزول من قصره إلى مبنى الإتحاد الإشتراكى ففوجئ بالعصا تتكسر لتصبح مثل النشارة، فخلع ملابسه وقرر البقاء .. لم يذهب إلى الإجتماع السياسى الهام .. وقيل أيضاً أن رجاله اكتشفوا مؤامرة إنقلاب عليه .. وأن المتآمرين الذين قبض عليهم اعترفوا بأنهم كانوا سيقتلونه وهو فى مبنى الإتحاد الإشتراكى.

هذه هى الأسطورة ـ أو الخرافة ـ التى قيل أنها حكمت نميرى وتحكمت فيه وسيطرت عليه ودفعته إلى ما وصل إليه .. ومع ثغرة الطفل الذى لم يأت والأمنية الغالية التى لم تتحقق، أصبح نميرى بين قوسين .. وبين القوسين حاصروه وحصروه .. فمشى بأستيكة على ما فعل.

ان الخرافة ثمرة من الخشب لا عصير فيها .. باب دوار يعيدنا إلى نفس المكان القديم الذى غادرته البشرية حين كان التنجيم عملاً دينياً حتى أسقطته المسيحية .. وحين كان التنجيم عملاً سياسياً حتى أسقطته النظريات العلمية .. لقد كان الملوك والأمراء يحفظون كتاب العالم السكندرى كلود بتوليما وعنوانه «تيترابيبلو» والذى يضم الرموز والقواعد المترجمة للنجوم .. إن هذا الكتاب كان أهم قاموس سياسى قبل ميلاد المسيح بحوالى ١٥٠ سنة .. ويبدو أنه سيستعيد نفوذه على بعض الحكام بعد حوالى ٢٠٠٠ سنة على ميلاد المسيح .. فى وقت سقطت فيه كل النظريات .. وعادت إليه الخرافات.

على أن الإنسان مولع بكشف أستار الغيب ويتعجل معرفة ما يخبئه الغد .. انه يسعى إلى كسر إشارات المرور الحمراء التى تعترض واقعة وتقص أجنحة حريته ..

لكنه فى النهاية يؤمن بأنه «لو علمتم الغيب لاخترتم الواقع» .. وهى حكمة تقضى على حركة العصيان الخطيرة فى نفوسنا.

وفى مذكراتها «سيدة من مصر» تقول السيدة جيهان السادات أنها وهى طفلة كانت تقول:

ـ عندما أكبر سوف أفعل شيئاً خارقاً.

وتروى قصة أصبحت شائعة عن عراف أمسك بيدها وتفرس كفها ثم قال:

ـ ستصبحين ملكة مصر!.

كانت قد تزوجت أنور السادات .. وكانا يبحثان عن أجرة البيت فأغرقا فى الضحك .. ولم يمنحا العراف سوى القرش الأخير فى جيبهما.

وفى كتاب أندريا ياربو أن العرافين يدخلون قصور حكام العالم بواسطة زوجاتهم .. ان «السيدة الأولى» تعيش فى حالة تحفز .. وتوتر عصبى أكثر من زوجها .. وهى أسرع منه فى اكتشاف الرضوض والكسور والكدمات الزرقاء التى تصيب أسرتها من جراء السلطة .. وهى تسعى لحمايتها بكافة الطرق بما فيها قراءة الكف والفنجان واستشارة النجوم.

وأغلب الرؤساء يرفضون الخرافة فى البداية .. ثم يتابعونها من باب الفضول .. ثم يجدون أنفسهم غارقين فيها .. إن هذا حدث مع الرئيس الأمريكى بيل كلينتون الذى استنكر أن تستخدم زوجته هيلارى وسيطاً روحانياً لتحضير روح الرئيس روزفلت وزوجته لتأخذ منهما النصائح لإنقاذ كلينتون من الفضائح الجنسية التى تطارده .. ولم يمر سوى وقت قليل حتى سأل كلينتون زوجته عن هذه النصائح.

ولا ينافس بعض الحكام فى الخرافة سوى بعض نجوم السينما .. وأنا أعرفُ أن فى مصر حرباً بين النجمات على السحر والأعمال السفلية.. وهناك منافسة ضارية بينهن ليس على المنتجين ورجال الأعمال فقط وإنما على المنجمين والمشعوذين

أيضاً .. وبعضهن يذهبن حتى آخر الدنيا للبحث عن عراف أجنبى لم تصل إليه غريمتها.

ولو كان النجوم أحراراً فى أنفسهم فليس الحكام من هواة التنجيم كذلك .. فهم ببساطة يضعون مصائر شعوبهم فى ملاجئ ومنازل النجوم، ويغرقون صناعة القرار فى أوسع بحار .. وإذا كان مئات العلماء ـ منهم ١٨ عالماً من الحاصلين على جائزة نوبل .. قد أدانوا الخرافة فى بيان شهير نشروه فى عام ١٩٧٥ ، فإن بعض حكام العالم .. الذين يتحدثون عن القرن القادم .. فى حاجة إلى التوقيع على بيان من هذا الطراز يسحبون به الدم الفاسد من شرايينهم ويعلنون فيه أنه ليس بالأحجبة والأدعية وكتابة الرقى والتعاويذ يطردون الفقر والقهر والجوع والتصعب من جسد العالم المريض.

١٢ الرجاء .. عدم الاغتيال

لم تكن اللافتة المعروفة «الرجاء عدم الإزعاج» هى اللافتة المناسبة التى كان على عالم الذرة المصرى الدكتور يحيى المشد وضعها على باب غرفته فى فندق «ميرديان» باريس .. كانت اللافتة المناسبة هى «الرجاء عدم القتل».

لكن .. حتى لو وضع لافتة التحذير من القتل فإن الموساد كان سيقتله .. سيقتله .. فهو الوحيد الذى يطور برنامج القنبلة النووية العراقية .. وهو الوحيد الذى يتفاوض مع الفرنسيين على شراء «الكعك الأصفر» أو اليورانيوم الضرورى لهذه القنبلة .. كذلك فإنه رفض أن يكون عميلاً يبيع ضميره الوطنى للمخابرات الإسرائيلية مقابل ١٠٠ مليون دولار .. فكان لابد من تحطيم رأسه حتى يطمئنوا إلى أن مصدر قوته قد سقط على الأرض .. وتبعثر .. وأصبح دماً مجمداً على أرضية الغرفة.

للمرة الثانية تعترف الموساد بجرأة تتجاوز الوقاحة بأنها هى التى قتلته .. جاء الاعتراف الأخير فى كتاب جوردن توماس «جواسيس جدعون» - الذى صدرت ترجمته منذ أيام فى القاهرة - وفيه أن رئيس الموساد «فى الفترة ما بين عامى ١٩٧٤ و ١٩٨٢ أمر فرقة الاغتيال بالتخلص منه .. كان البعض يراقب الشوارع .. والبعض يراقب ممرات الدور التاسع فى فندق «ميرديان» باريس .. ودخل اثنان غرفته «الغرفة ٩٠٤١» بمفتاح «ماستر» .. وفى ثوان تخلصوا منه وتركوه غارقاً فى غربته.

أما المرة الأولى التى اعترف فيها الموساد بقتله فكانت فى سبتمبر ١٩٩٠ فى كتاب ضابط المخابرات الإسرائيلية المنشق «فيكتور ستروفيسكى» الذى نشره بعنوان بطريق الخداع» وفيه أن يهودا جيل أحد رجال الموساد الذين يتحدثون العربية طرق باب غرفته .. وفتح يحيى المشد الباب موارباً وترك السلسلة المربوطة فى الداخل.. وسأله المشد:

- من أنت؟ ماذا تريد؟

- إننى رسول قوة ما سوف تدفع لك أموالاً طائلة لو تعاونت معها وأجبت لها على أسئلتها.

- إذهب إلى الشيطان يا كلب وإلا أبلغت الشرطة.

- ترك جيل الفندق وطار على الفور إلى تل أبيب لكيلا يرتبط وجوده بما سيلاقيه المشد القتل بلا تردد .. بلا رحمة .. وبعد ساعات تسلل إلى غرفته اثنان من عملاء الموساد وفتحا الباب بمفتاح مزور وحطما رأسه.. ووضعا لافتة «عدم الإزعاج» .. وهو ما عطل إكتشاف الجريمة إلى اليوم التالى .. وحين تعجبت مشرفة الدور من النوم الطويل الذى استغرقه هذا النزيل .. فطرقت الباب .. فلم يرد .. وعندما دخلت وجدت المشهد المروع.

قبل اعتراف ستروفيسكى بعشرة شهور كنت قد نشرت كتابى «الموساد واغتيال المشد ورويت لأول مرة أسرار عملية قتله التى سجلت فى ملفات الموساد تحت عنوان «عملية سفنكس» .. وقد نقل ستروفيسكى عنى الكثير مما كتب وإن أشار إلى المصدر .. وكذلك فإنه استقطع من الوثائق التى حصلت عليها ما يلوى عنق الحقيقة.. وكنت قد حصلت على كافة الأوراق من زوجته زنوبة على الخشخانى .. ومن محاضر البوليس الفرنسى بمساعدة دبلوماسيين مصريين كانوا فى باريس فى ذلك الوقت.. ولم يتغلب دورهم الوظيفى على دورهم الوطنى .. فقد كان الرئيس السابق أنور السادات فى شهر العسل مع مناحم بيجن .. وتصور إعلامه أن من حق اسرائيل - التى تقتل علماءنا أن نداري عنها جرائمها فكان أن نفوا التهمة عنها ولصقوها بجبهة الرفض العربية التى كانت سوريا فى صدارتها .. والمذهل أن اسرائيل لم تحترم ذلك .. فبعد ساعات قليلة من لقاء بين بيجن والسادات فى شرم الشيخ جرى

فى يوم الجمعة ٥ يونيو عام ١٩٨١ أغارت الطائرات الاسرائيلية على المفاعل العراقى.. ووضعت القذائف المدمرة نظام السادات فى حرج واضح ومعلن بعد أن تجاوز هذا النظام الحرج الخفى والمستتر بقتل واحد من أبرع أبناء الوطن هو الدكتور يحيى المشد فيما بين الساعة السادسة والنصف والساعة السابعة والربع من مساء يوم الخميس ١٣ يونيو عام ١٩٨٠ .. وكان هناك إصرار إسرائيلى على أن يظل يونيو يطاردنا .. وأخطر من القتل كانت مؤامرة الموساد لتحطيم سمعة الدكتور يحيى المشد لقد أرادت الموساد تصوير جريمة اغتياله على أنها جريمة فيها دعارة.. لا سياسة.. فكان أن دفعت فى طريقه بعاهرة محترفة تغريه بقضاء ليلة من المتعة الحرام تنتهى بذبحه .. لقد عاد يوم اغتياله إلى الفندق وهو يحمل أكياساً من البلاستيك الملونة .. فيها هدايا صغيرة لأسرته .. فستان وجونلة وساعة يد وجوارب نسائية من النايلون لزوجته وأبنته لمياء .. وفى المصعد لحقت به العاهرة مارى كلود ماجال .. التى كانت تشتهر بلقب «مارى أكسبريس» وبصوت فاحت منه رائحة إغراء رخيص مفتعل حاولت إقناعه بالاستجابة .. لكن الفلاح المصرى المستقيم ـ المولود فى طنطا فى ١١ يناير ١٩٣٢ والذى لا يدخن ولا يشرب وينام بعد صلاة العشاء ـ تجاهلها .. وانشغل بقراءة اعلانات الفندق الموضوعة فى الأسانسير.. وكررت المحاولة .. «أنت جذاب جداً، لا تتردد فلن تندم.. وعندما يئست تماماً قالت: «أرجوك لا تشعرنى بالاهانة» .. وبمجرد أن وصل الأسانسير للدور التاسع سارع المشد بالخروج منه ودخول غرفته وإغلاق الباب عليه .. وكأنه يفر من كل شياطين الأرض.

وفيما بعد قالت مارى كلود ما جال فى تحقيقات الشرطة ـ التى تأخرت ١٥ يوماً ـ أنها لم تذهب إلى غرفته .. لكنها أقتربت من الباب.. وسمعت ضجة منبعثة من الداخل .. فقررت الهروب من موقع الجريمة.. ووجدت الشرطة إلى جانب الجثة منشفة حمام «بشكيراً» تعمد القتلة تلويثه بمساحيق نسائية حتى يثبتوا أن الجريمة سببها علاقة جنسية وليست علاقة مخابراتية .. أو أنها جريمة عاطفية لا جريمة نووية.

إنهم لم يكتفوا باغتيال جسده وإنما سعوا لاغتيال شخصيته .. إن القتل المعنوى أخطر من القتل المادى .. وتشويه السمعة أسوأ من تشويه الجسد .. انها لعبة شهيرة

تلعبها الأجهزة الخفية مع العلماء والمفكرين .. لكنها رغم كل المؤامرات القذرة .. لا تفلح .. فالتاريخ يلقى بمدبرها وصانعها ومروجها وحاملها وسامعها فى صناديق القمامة .. فكلمة واحدة من الحقيقة قادرة على هدم جبال من الباطل .. لكن أغلب الناس لا يعلمون ولا يتعلمون.

بعد حوالى الشهر بالتحديد فى ١٢ يوليو ١٩٨٠ ذهبت مارى أكسبريس إلى بار «أولدناين» فى بوليفار سان جيرمان وعندما غادرته كانت «إما فى حالة سكر أو أنها تناولت مخدراً لأنها بالكاد كانت قادرة على السير كانت تترنح وتتمايل وتبدو غير قادرة على الرؤية .. ويقال لأنها ارتطمت فى طريقها بسيارة .. فغضب السائق وهو يعمل فى محطة بنزين .. فدفعها بعيداً وألقى بها إلى عرض الطريق .. وفى تلك اللحظة بالضبط جاءت سيارة طراز رينو مسرعة فداستها ودهستها .. وفى ثوان أصبحت جثة هامدة.

اختفت الشاهدة الوحيدة إلى الأبد .. ولكن المثير للريبة والدهشة أن المتحدث بلسان الشرطة الفرنسية م. بيريه استبعد أن يكون مصرعها متعمداً .. وأصر على أن الحادث كان حادثاً عرضياً مثل حوادث الطريق الكثيرة .. أما أمها فقد أكدت أن أبنتها ذهبت ضحية جريمة مدبرة .. وقالت: أن ابنتها لم تتعاط المخدرات من قبل .. وأنها لم تكن تميل إلى المشروبات الكحولية وأنها بحكم مهنتها لم تكن توصل نفسها إلى حالة الثمالة .. وأنها قبل مصرعها بأيام تلقت مكالمة تهديد هاتفية من شخص غريب «مجهول الهوية».

استدعت الشرطة الفرنسية ٥٠ شاهداً .. لكنها لم تتردد فى تسجيل استيائها من إهمال الحكومة المصرية التى ينتمى إليها القتيل .. وتجاهل الحكومة العراقية التى كان يعمل فى خدمتها .. وسجل التقرير الصحفى الذى كتبته «الموند» عن الحادث: أن القتيل لم يجد من يقف إلى جواره حياً .. ولم يجد من يفتش عن قاتله ميتاً .. وأضيف إلى ذلك أنه لم يجد من ينصفه .. قتيلاً .. فقد تجاهلت الصحف ما وراء اغتياله .. بل وساعدت القاتل فى ذلك الوقت على إخفاء جريمته بأن أشارت بأصابع الاتهام بعيداً .. أشارت إلى عصمت زين الدولة أستاذ الهندسة النووية بهندسة الإسكندرية وأقرب الأصدقاء إليه .. وهى سذاجة لإعلام كان يتخبط فى ذلك الوقت ولا يعرف الفرق بين العدو والصديق .. بين القاتل والقتيل .. بين

الضارب والمضروب .. ولم يتح لى أن أنشر الحقيقة كاملة وبدقة إلا بعد حوالى ٩ سنوات من وقوع الجريمة.

والغريب ألا يتحرك أحد بعد أن أعترفت الموساد بعريضة الاتهام التى تضمنها كتابى عن المشد .. والغريب أنه لا أحد طالب بالثأر .. أو رفع قضية تعويض .. أو وضع الجثة والجريمة على مائدة من موائد المفاوضات التى لا تنتهى بيننا وبين إسرائيل .. وهو ما تفعله إسرائيل التى لم تتردد فى الانتقام من النازيين الذين قتلوا اليهود فى ألمانيا أثناء الحرب العالمية الثانية .. كذلك فإنها لم تتردد بالمطالبة بالتعويضات عن الممتلكات التى كانت من قديم الأزل .. وعادت لدفاترها القديمة لتسوى حسابات لم تخرج من علم السياسة فقط وإنما من علم المحاسبة أيضاً .. فلماذا نحن طيبون .. متسامحون .. متساهلون .. مع أعدائنا إلى هذا الحد؟ .. ولماذا لا يحظى أصدقاؤنا بمثل هذه المعاملة التى نعامل بها أعداءنا.

ولعلها فرصة أن نسترد ثقتنا فى أنفسنا ونعرف أننا قادرون على أن نفعل الكثير لو أردنا .. لو كانت هناك نية حقيقية فقد كان الدكتور يحيى المشد قادراً على تطوير البرنامج النووى العراقى إلى حد الاقتراب من القنبلة الذرية .. ويدعم ذلك تقرير لجنة الطاقة الذرية الفرنسية الذى تضمنه ملف جريمة اغتياله لقد قال التقرير: إن الدكتور المشد كان على علم تام بتفاصيل التعاون الفرنسى العراقى فى مجال المفاعلات النووية التى سلمتها فرنسا للعراق .. وأنه كان على علاقة قوية بالمسئولين فى لجنة الطاقة الذرية الفرنسية وقد سبق أن استقبل فى بيته فى بغداد المسئول الأول عنها .. وأيضاً كان دائم التردد وهو فى فرنسا على المركز النووى فى «كاراخ» و «بيرلات» .. وعلى المعاهد النووية فى «ساكلاى» و «فونتا أوروز» .. كذلك .. فإنه قبل اغتياله بساعات كان قد أنهى بنجاح مهمته فى فحص الوقود النووى من اليورانيوم المثرى بدرجة ٩٣ بالمائة والذى يمكن استخدامه فى صناعة القنبلة الذرية .. وأشار التقرير إلى: أن العراق كان على وشك الوصول إلى هذه القنبلة .. لولا قتل المشد .. وتدمير المفاعل العراقى .. وقبل ذلك ما جرى فى ميناء «طولون» الفرنسى.

فى مساء يوم السبت ٧ أبريل ١٩٧٩ نفذ الموساد عملية «قرص العسل» فى بلدة «لاسين سورمير» وهى مدينة للصناعات البحرية تبعد ٧ كيلو مترات عن ميناء

طولون .. وفى هذه البلدة كانت تخزن شحنات الأجزاء الرئيسية من المفاعلين النووين (تموز ـ ١ أو أوزوريس وتموز ـ ٢ أو إيزيس) اللذين تعاقدت فرنسا عليهما مع العراق .. وكانت الصناديق ستشحن من هناك على أوتوستراد رقم «٥٥٩ ـ ن» إلى مرسيليا .. ومنها بحراً إلى البصرة .. وسارعت الموساد بإرسال ٩ من عملائها لتفجير المفاعلين قبل حملهما إلى مرسيليا .. فقاموا بتوصيل المفاعلين وهما فى الصناديق بثمان كتل من المواد المتفجرة من النوع الذى يستخدم فى نسف الدبابات والعربات المصفحة.

وفى تلك الليلة دوى الانفجار .. ولم تفلح صفارات الإنذار ولا سيارات الإطفاء فى إنقاذ الكثير .. فقد احترق ٦٠٪ من المفاعلين وبلغت الخسائر ١٣ مليون دولار.. والأهم أن البرنامج النووى العراقى تعطل.

ومن باب الخداع اتصل الإسرائيليون ـ بعد ساعات من الحادث ـ بالشرطة الفرنسية على أنهم منظمة لحماية البيئة تسمى «جماعة حماية البيئة الفرنسية» واعترفوا على هذا النحو بالعملية.

و «حذروا من أن الجماعات ستتابع مثل هذه العمليات ضد المفاعلات النووية».. وعلى الرغم من أن أحداً لم يسمع عن هذه المنظمة من قبل فإن الشرطة الفرنسية صدقت ذلك .. فقد كانت تريد أن تصدق.

إن تدمير المفاعل العراقى مرتين .. فى طولون .. وفى بغداد .. وقتل يحيى المشد .. ثم فيما بعد التفتيش على أسلحة الدمار الشامل كانت كلها سلسلة من الإجراءات لمصلحة أن تظل إسرائيل منفردة فى المنطقة بالقوة النووية.

وأخطر ما كشفه الاعتراف الإسرائيلى بقتل المشد هو أن هناك قوائم تضعها الموساد لأعداء إسرائيل الذين يجب التخلص منهم فوراً .. وتوضع القوائم بموافقة رئيس الموساد .. لكن عمليات تنفيذ القتل لا تتم إلا بموافقة رئيس الوزراء .. وفى حالة الدكتور المشد يكون الذى وافق على القتل هو مناحم بيجين الذى كنا نستقبله كبطل للسلام وهو فى الحقيقة كان قاتلاً محترفاً تقطر يده دماً.

أخطر ما كشفته عملية اغتيال المشد ـ التى طالبنى عشرات من القراء بكشفها والكتابة عنها ـ أن كثيراً من أوجاعنا القومية مغطاة بالغبار.. والانكسار .. ولكن .. لا أحد منا قادر على الانفجار.

١٣ السقوط من الجنة !

كانت الحرية فى السودان كالشطة الحمراء تشتعل على ضفاف الفم .. وتتساقط كثمار المانجو على بوابة القلب.

كانت الحرية فى السودان تتوضأ بماء النيل .. وتتعطر ببخور «أم درمان» .. وتتكحل بسواد الليل فى عيون السودانيين .. وتعيش حباً قديماً لمصر، يشتعل كلهيب الشمس فى دورتها الدموية.

كانت الحرية فى السودان قادرة على اختراق حياة بأكملها .. قادرة على أن تقول للثورة .. للانتفاضة .. للديمقراطية، كونى فتكون.

لكن .. ذلك انقلب تماماً .. ودخلت الحرية «الكرانتينا» أو «الحجر الصحى» وكأنها جرثومة كوليرا أو ملاريا أو حمى صفراء .. وسرعان ما أصبحت الحرية كالعصفور الميت فى حلق السودانيين .. أو كقبلة من طرف واحد .. لا طعم لها ولا نكهة.

وعلى جثة الحرية اشتعلت الحرب الأهلية .. حيث نسى السودانيون كلماتهم وأفكارهم وحضارتهم وتسامحهم وركبوا قطار الطائفية .. وهو قطار يحمل فى أحشائه ملايين المعذبين فى السودان ويبحث عن محطة للاستقرار يقف فيها .. وعن أرض للمغفرة والعدل والديمقراطية يتجه إليها.

لقد تدفقت هذه المشاعر وأنا أقرأ «مسودة» كتاب تحت الطبع للدكتور جون جرنج زعيم الحركة الشعبية لتحرير السودان الذى كتبه بعد زيارته الشهيرة لمصر فى نهاية العام الماضي .. وكنت خلال هذه الزيارة قد اقتربت منه، وفهمته، وناقشته فى أفكاره، وأحلامه لساعات طوال .. مرة وجهاً لوجه فى جناحه بفندقه المطل على نيل القاهرة الساحر، المهذب .. ومرة على مائدة غذاء ونقاش بدعوة من د. أسامة الباز مع مجموعة من المثقفين والسياسيين الذين يؤمنون بأن مصر والسودان قطعتان فى وطن واحد .. ومرة فى بيت د. فاروق أبو عيسى رئيس اتحاد المحامين العرب .. حيث تحدث جون جرنج بقوة وعنفوان وصراحة الأمطار الاستوائية.

وقد جمع جرنج هذه الأمطار فى هذا الكتاب ـ النهر، الذى كتب مقدمته د. صبحى عبد الحكيم، و د. ميلاد حنا، ليؤكدا بذلك إن كل الجرائم السياسية مغفورة إلا سرقة السودان وخطفه بعيداً عن مصر.

إن هذا العملاق الجنوبى جاء إلى القاهرة من الزمن الردئ فى الخرطوم .. حيث شاخ الناس .. وتعبوا .. وأكلوا أنفسهم .. وخلعوا ثوب العافية .. وتركوا بلادهم وقد أكلتها النار أو أكلتها الكراهية .. ونهر النيل الذى كانوا يسمونه شريان الخير والحياة أخذوه إلى شاطئ مهجور، وعصبوا عينيه، وأطلقوا النار على لونه الأزرق.

فى القاهرة اختبر جرنج قوته البدنية، وقام بتسلق حجارة هرم «خوفو» الأكبر .. وعندما قال له مرشده السياحى: إن الأهرام إحدى عجائب الدنيا السبع، اعترضه قائلاً: إن عجائب الدنيا ثمان .. والثامنة فى الخرطوم .. هى حسن الترابى .. الرجل الذى سرق كنوز اللؤلؤ والأسود من عيون السودانيين .. والذى سيوضع فى متحف الشمع ـ مع نيرون وجنكيز خان وهتلر ـ لتشاهده أجيال المستقبل باعتباره «الرجل الذى حطم السودان».

إن السودان واسمه القديم «كوش» مذكور فى الكتاب المقدس .. ولكن الترابى ـ كما يقول جرنج ـ يرى أن السودان لم يبدأ إلا فى عام ١٩٨٩ عندما استولى نظامه الأصولى على السلطة.

لم يفهم هذا النظام طبيعة السودان التى تقوم على الاختلاف والتنوع.. فهناك أكثر من ٥٠٠ مجموعة عرقية، تتحدث أكثر من ١٠٠ لغة مختلفة، ولها ديانات متنوعة .. من الإسلام إلى المعتقدات الإفريقية.. ومن المسيحية إلى الوثنية .. إن السودان ليس هو فقط الشمال العربى المسلم .. هذا خطأ سياسى وحضارى شائع أوقع السودان فى براثن الحروب الأهلية لمدة ٣١ سنة من ٤١ سنة هى عمر استقلاله .. وجعلنا فى مصر نجهله تماماً .. ومن ثم لم نهتم بفهمه واستيعابه، رغم أنه عمقنا الاستراتيجى، وجزء حيوى من أمننا القومى، واختلافنا معه يعنى أن خنجراً حاداً قد اخترق ظهرنا ولحمنا.

إن السودان ليس «رقاقة» من العجين يسهل أن تصنع منها الخرطوم قالب حلوى.. إنه دائرة من النار من يخطئ فى اقتحامها لا يعرف إذا كان سيخرج منها أم سيتحول إلى رماد؟.

وقد لمست بنفسى هذا التنوع عندما زرت أطراف السودان المختلفة على مدى ١٥ رحلة شاقة لا أتصور أن مسئولاً سودانياً حالياً قد قام بها لإعادة اكتشاف بلاده .. والتعرف عليها.

رأيت فى الجنوب الناس يقسمون على «الحرية» تقرباً وخوفاً من «فيالج» الإله المعبود، ورأيت هناك من يشهر إسلامه صباحاً، ويعود إلى مسيحيته عصراً، ولا ينام إلا بعد أن يصلى لآلهته الإفريقية .. ولذلك لن تتعجب لو وجدت مسيحياً اسمه محمد، ووثنياً اسمه موسى، ومسلماً اسمه عبد المسيح .. فالله هناك يعرفه الناس على طريقتهم الخاصة التى يصعب على شخص مثل الترابى أن يتفهمها.

ورأيت فى الغرب .. فى جبال «النوبة» - وهى غير النوبة التى نعرفها - بشراً يعيشون على الطبيعة البكر .. يتعايشون مع الحيوانات المفترسة .. لا يعرفون أين تقع الخرطوم .. وليست لبيوتهم الطينية - التى تسمى القطية - أبواباً .. فهم يدخلون ويخرجون قفزاً من فتحة فى الجدار.

ورأيت فى الشرق مناطق بأكملها لا يعرف أهلها اللغة العربية .. إنهم يتحدثون

لغة تسمى «البجة» وهى لغة مستوحاة من أصوات الطبيعة.. زئير أسد .. خرير ماء .. مواء قط .. وصراخ قطيع من الأفيال.

ولذلك .. فالمشكلة ليست فى الجنوب فقط كما هو شائع .. وإنما فى كل مكان فى السودان .. حيث الاختلاف هو الأصل .. والاتفاق هو المصادفة التى لا تأتى دائماً.

والحاكم السودانى الوحيد الذى فهم السودان على هذا النحو كان جعفر نميرى .. وهو ما جعله يمنح أقاليم السودان المختلفة حكماً ذاتياً.. فتوقفت الحروب الأهلية .. لكن .. فى عام ١٩٨٣ انقلب نميرى على نفسه وتراجع عن خبرته وأعلن تطبيق قوانينه الخاصة بالشريعة على هذه «الدنيا» المليئة بالألوان والأديان .. والقبائل والشمائل، المسماة بالسودان .. فعادت الحروب والمجاعات.

يروى جرنج فى كتابه: إن نوعاً من النبيذ اسمه «البنت» كان شهيراً فى الجنوب.. وعندما كان نميرى يرقص ويرقص حتى تتقطع أنفاسه، كان يقول: «هاتوا البنت».. ولم يكن واضحاً هل كان يطلب هذا النوع من النبيذ أم كان يطلب شيئاً آخر؟.

ويعلن جرنج: «هذا هو الرجل الذى أصدر قوانين الشريعة بأوامر جمهورية» .. وقد ورطه فيها حسن الترابى الذى استغل ضعفه للأولاد الذين حرمه الله منهم واستغل ميله للغيبيات فدفعه إلى الغيبوبة .. وإلى خراب السودان.

ووصل الخراب إلى الذروة الآن .. فالدولار أصبح يساوى أكثر من ٢٠٠٠ جنيه سودانى .. ومرتب مدير الجامعة بهذا السعر لا يزيد على ٧٥ دولاراً فى الشهر بينما يحصل المزارع البسيط - فى المناطق المحررة فى الجنوب - على ١٥٠ دولاراً لو أنتج جوالاً من حبوب عباد الشمس يزن ١٠٠ كيلو جرام .. وهو ما يعادل مرتب اثنين من مديرى الجامعات.

والناس فى الخرطوم يبيعون ملابسهم وأثاثاتهم ليأكلوا .. ليبقوا فقط على قيد الحياة .. ومن لم يمت من الجوع مات فى الحرب .. وقد توقفت الدراسة فى الجامعات ودفعوا ٨٠ ألف طالب إلى الموت فى الجنوب .. وتجمهرت الأمهات خارج مبنى

الأمم المتحدة فى الخرطوم ليسلمن مذكرة احتجاج تقطر حزناً وألماً .. فقامت قوات الأمن بالاعتداء على النساء، واعتقلت ٢٨ امرأة .. وقدمن لمحاكمة فورية فى مساء نفس اليوم، وحكم عليهن بالجلد.

وبأناقة وحضارة يعلق جرنج: ان النظام الذى يجلد النساء هو نظام قطع جسوره مع الله .. إن النظام الذى يضرب المرأة ويضطهدها ويعتبرها مشاغبة ومخربة وخطراً على أمن الدولة هو نظام فقد صلاحيته قبل أن يفقد شرعيته.

وقد انضم جرنج إلى تجمع المعارضة السودانية وسعى مع رموزها الحزبية والسياسية إلى تطوير قدراتها لإسقاط النظام .. وفى القاهرة قال لى: إن كل مناضل يخاف على نعومة يديه من جروح المعركة خير له أن يقعد فى بيته ويمارس الأعمال المنزلية .. وفى كتابه كان واضحاً وصريحاً ومباشراً وهو يتحدث عن كيفية إسقاط النظام.

إنه يرى فى نفسه قوة وندية وجرأة تجعله يكشف أوراقه ولا يخفيها.. إنه يلعب على المكشوف .. وهو يقول إنه قادر على تفجير الطرق ومحطات الكهرباء الرئيسية التى تعيش عليها الخرطوم .. لكنه يعتبر هذه الخطوة سابقة لأوانها حتى لا يعانى السودانيون أكثر .. والأهم من هذه الخطوة الآن البحث عن الوسيلة الفعالة لإنقاذ السودان من «جبهة الإنقاذ».

إن لعبة السلطة فى السودان كانت تجرى بالتبادل بين الانقلاب العسكرى والانتفاضة الشعبية .. فقد استولى الجنرال ابراهيم عبود على السلطة فى عام ١٩٥٨ بانقلاب عسكرى .. ثم أسقطوه فى عام ١٩٦٤ بانتفاضة شعبية .. واستولى جعفر نميرى على الحكم بانقلاب عسكرى فى عام ١٩٦٩ وسقط أيضاً بانتفاضة شعبية فى عام ١٩٨٥ .. واستولى عمر البشير على السلطة بانقلاب عسكرى فى عام ١٩٨٩ .. فهل يسقط كذلك بانتفاضة شعبية أم أن اللعبة ستخرج عن قواعدها وقوانينها هذه المرة؟.

بدقة مذهلة وخبرة واضحة يعترف جرنج أن الانقلاب العسكرى لم يعد أمراً سهلاً الآن فى السودان .. فالجيش هناك سعوا إلى تحطيمه وتفريغه من قوته الذاتية

وعناصره الوطنية .. وفى الوقت نفسه أوجدت جبهة الإنقاذ جيشها الخاص عن طريق ما يعرف بقوات الدفاع الشعبى وكتائب المجاهدين .. وهو جيش بديل .. ومن ثم فإن من الصعوبة بمكان حدوث انقلاب .. ورغم أن هناك عناصر وطنية مازالت داخل الجيش - يمكن أن تقوم بانقلاب - فإن فرصتها ضعيفة جداً.

إن جرنج لا يعطى لفرصة نجاح انقلاب أكثر من ١٠٪ ويعطى للانتفاضة الشعبية فرصة تصل إلى الضعف.. حوالى ٢٠٪ .. لكنها أيضاً فرصة ضعيفة .. والسبب هو أن الجبهة ربطت مصالح الأثرياء المباشرة بها .. فالرخص التجارية وتوكيلات الاستيراد والتصدير لا تمنح لأعضاء الأحزاب ولا يتمتع بها إلا قيادات الجبهة .. وهم يحرمون سكان المناطق العشوائية حول الخرطوم من إعانات الإغاثة إلا إذا انضموا للجبهة .. وأغلب أعضاء الجبهة يحملون السلاح ولن يترددوا فى إطلاق النار على أى مظاهرة يمكن أن تتحول إلى انتفاضة.

ويتحدد مصير أى انتفاضة حسب موقف الجيش منها .. فى عام ١٩٦٤ مثلاً أعلنت حكومة عبود إنها لن تسمح بإراقة الدماء فى شوارع العاصمة .. وأمرت الجيش بالرجوع إلى ثكناته .. وفى عام ١٩٨٥ أعلن سوار الذهب فى التليفزيون إن القوات المسلحة انحازت للشعب .. ولو تدخل الجيش لما نجحت الانتفاضة .. وهو ما حدث فى كنشاسا حيث فشلت المظاهرات - التى كانت أشد ضراوة من مظاهرات الخرطوم - فى إسقاط الحكومة لأن الجيش وقف بجانب موبوتو .. وفى السودان الآن جيشان .. جيش نظامى .. وجيش الجبهة .. ولو وقف الجيش النظامى على الحياد فإن جيش الجبهة سيتدخل بقوة.

ويرى جرنج أن الحل هو استحداث وسيلة لم تعتد الجبهة عليها وهى مؤلفة من عدة آليات .. تكامل الكفاح المسلح فى جنوب السودان وفى جبال النوبة وفى جنوب النيل الأزرق .. وهى مناطق الحرب الأهلية المشتعلة فى السودان .. بجانب التجهيز لانتفاضة شعبية .. وتدبير انقلاب عسكرى فى الجيش النظامى .. إن هذه الوسائل يجب أن تعمل معاً .. وفى وقت واحد.

ويرى أيضاً أن نظام الجبهة ضعيف .. فهم قد دفعوا بطلاب المدارس الثانوية إلى الموت الجماعى فى الحروب الأهلية .. وقد هرب البعض.. وأضرب البعض الآخر عن الطعام .. فى سابقة لم تحدث من قبل فى جيش من الجيوش .. وهى ظاهرة الإضراب عن الطعام.

ويحاول هذا النظام أن يبيع الأوهام للناس .. ويتحدث عن الرخاء الذى سيهبط من السماء مع تصدير بترول لم ينتجوه ـ بالكميات التى يتحدثون عنها ـ بعد.

إن وجود هذا النظام نعمة خفية .. فالشعب السودانى ـ خاصة فى شمال السودان ـ اختبر بنفسه أجندة الترابى الإسلامية .. لقد كانت هذه الأجندة مثل التفاحة المحرمة .. كان لابد من تجريبها حتى يسقط السودانيون من الجنة إلى الجحيم .. إن ٩٠٪ من السودانيين يرون أن نظام الجبهة لا يخدم مصالحهم .. ولابد أن يذهب.

كما أن الحسنة الأخرى لهذا النظام برزت عندما أعادت القوى السودانية تنشيط تجمعها الديمقراطى لإيجاد ما سمته «السودان الجديد» الذى يقوم على التنوع الدينى والثقافى والحضارى .. والسياسى .. ولا يقوم ـ مثل نظام الجبهة ـ على الفاشية الدينية .. وضيق الأفق .. والجهل بحقائق التاريخ والجغرافيا .. وقد جرت مفاوضات فى نيروبى بين جرنج ونظام الجبهة .. وكانت شروط جرنج هى: فصل الدين عن الدولة .. ورفع الحظر عن الأحزاب السياسية .. ثم إلغاء القوانين المستمدة من الدين .. ثم تشكيل حكومة انتقالية تقود إلى انتخابات عامة .. باختصار طالب جرنج حكومة الجبهة بالاستقالة وإن لم يذكر ذلك صراحة.

وفى حواره .. فى القاهرة لمس جرنج اهتماماً رئيسياً لمصر هو وحدة السودان.. ولم يتردد فى إثبات إنه مع وحدة السودان .. التى تراعى جميع اختلافاته .. ولا تفرض إرادة جماعة على باقى الجماعات.. ولم يتردد فى القول بإنه ليس ضد الإسلام وإنما ضد استعمال الدين فى السياسة .. ولم يتردد فى القول بإنه ليس ضد العرب وإنما ضد سيطرة قومية على جميع القوميات.

لقد قال جرنج كلمته في القاهرة فسمعناه .. وكتبها فى هذا الكتاب فرأيناه .. إن الكتاب هو أول محاولة لرسم واقع السودان فى فراغ لم يملأه أحد.

أول وسيلة اتصال مباشرة بيننا وبين هذا البلد الملتصق بنا .. وأول تجربة مجسمة الصوت فى وقت بدت العلاقة بين القاهرة والخرطوم مسكونة بالصمت.

الكتاب .. منشور جرئ كتبه إنسان يريد أن يغير واقع بلاده المر ويقاتل احتجاجاً على التعصب .. وعلى غياب العدل .. وغياب الحرية .. ويرى أن سلاحه ليس البندقية التى يقاتل بها فقط وإنما أدوات الحضارة أيضاً .. وهى أدوات من ورق وحبر وأقلام .. وهى ضرورة لتغيير البشر وتغيير العالم .. فهو يواجه بها الكرابيج والمشانق وساحات الإعدام التى أصبحت منتجات تشتهر بها السودان مثل الصمغ والجمال.

الكتاب يستحق القراءة والمناقشة ودق الطبول حوله لأنه يتحدث عن موضوع شديد الحيوية والأهمية والخطورة بالنسبة لنا، خاصة فى وقت نجح فيه خصوم مصر فى عزلها عن السودان، مجالها الحيوى الطبيعى، الذى تسند إليه ظهرها فى استرخاء واطمئنان وهى تواجه باقى مشاكل المنطقة .. وعندما يكون النظام فى الخرطوم غير صديق، ومناوراً، ويزرع الحرب والأشواك، فإن حركة مصر - مهما كانت واثقة من نفسها فى المنطقة .. تصبح أكثر قلقاً.

إن العودة إلى الخرطوم بأى صورة وبأى وسيلة يضاعف من حيوية مصر التى تنهال عليها الخناجر والحجارة .. فى محاولة غير يائسة لإخراجها من الملعب .. وإفقادها الموازين والمعايير.

إننى على يقين بأن ما يقوله جرنج فى هذا الكتاب المستوحى من رحلته إلى مصر سينقذنا من كرة النار التى يلعبون بها فى الخرطوم .. والتى أحرقت أعصابنا قبل أن تحرق أصابعهم!.

١٤ عملية تجميل للموساد

فى شارع «الملك سول» فى تل أبيب مع مبنى إدارى .. لا يلفت النظر .. فى مدخله على اليمين بنك، وفى الدور الثانى كافيتريا، ومحلات تجارية أخرى تبيع الثياب ولعب الأطفال والحلوى .. لكن .. فى هذا المبنى غير المتوقع توجد المخابرات الإسرائيلية .. المشهورة باسم الموساد .. فى الدور الأرضى على اليسار .. حيث مدخل صغير جداً .. يؤدى إلى عالم عريض من الغموض والأسرار.

عن ما يجرى وراء هذه البوابة الصغيرة صدر فى الغرب الكتاب رقم ١٢٥٠ عن الموساد بعنوان «جواسيس جدعون ـ الحروب السرية للموساد» وهو الكتاب رقم ٣٨ من نوعه لمؤلفه جوردن توماس .. وهو إسرائيلى .. يهودى .. من أصل بريطانى .. تعلم فى مصر وكبر فى جنوب أفريقيا .. ولمع فى الولايات المتحدة الأمريكية.

وخطورة الكتاب أنه يحاول أن ينفخ فى صورة الموساد ويمنحها قوة هى فى حاجة إليها ولو باستعراض أمجادها القديمة فى وقت حاصرها فيه السقوط من كل جانب .. خاصة بعد فشل محاولة اغتيال خالد مشعل ـ ممثل حركة حماس فى الأردن ـ مما اضطر رئيس الوزراء الإسرائيلى بنيامين نيتانياهو إلى إطلاق سراح زعيم حماس الشيخ أحمد ياسين .. وبعد فشل محاولة اغتيال عبد الله زين ـ أحد عناصر حزب الله اللبنانى ـ فى سويسرا .. وقد دفع الثمن مدير الموساد السابق دانى

ياتوم الذى طرد من موقعه .. ليرثه أفرايم هاليفى الذى سعى جاهداً إلى تحسين سمعة الموساد ومعالجة التمزق الحاد الذى أصابها .. فكانت عملية اختطاف الزعيم الكردى عبد الله أوجلان .. وكان هذا الكتاب الذى اضطر فيه مؤلفه إلى كشف أسرار جديدة لعمليات قديمة .. لوضع مزيد من المساحيق والأصباغ على وجه الموساد الذى أصيب بالترهل والتجاعيد.

ولعل أخطر هذه الأسرار الاعتراف بأن ليبيا قد تكون بريئة من عملية تفجير طائرة «بان أمريكان» فوق بلدة «لوكيربى» ومقتل ١٧٩ راكباً على متنها .. منهم ثلاثة من عملاء وكالة المخابرات المركزية (الأمريكية) وأربعة من كبار ضباط المخابرات العسكرية الأمريكية .. واحد منهم هو الميجور تشارلس ماكى الضابط المسئول عن المخابرات العسكرية الأمريكية في بيروت الذى لوحظ - فى حطام الطائرة - أن إحدى حقائبه كانت فارغة تماماً .. وهو ما لفت انتباه مؤلف الكتاب جوردن توماس الذى توصل إلى أنه من غير المعقول أن يحمل الرجل حقيبة فارغة إلا من الهواء .. فكان أن كشف أن الحقيبة كانت متخمة بمستندات تثبت أن الموساد تتاجر فى المخدرات فى الشرق الأوسط .. وأنها تبيع السلاح سراً لإيران .. وقد سارعت الموساد - بالتعاون مع السلطات البريطانية - إلى مكان حطام الطائرة وسرقت المستندات التى كانت فى حقيبة تشارلس ماكى .. وهذا هو سر وجودها فارغة.

وتكمل هذه الرواية ما سبق أن فجره رجل الموساد السابق فيكتور ستروفيسكى بأن الموساد زورت أدلة إدانة ليبيا فى حادث لوكيربى .. فقد أرسلت الموساد رسالة من موقع قرب طرابلس - فى ليبيا - من جهاز إرسال وضعته هناك تقول: «المهمة انتهت بنجاح» .. وكان الهدف توريط ليبيا وهو ما حدث بالفعل فقد قيل إن الموساد أنقذت الفاعل الأصلى وهو إيران فى مقابل صفقات سلاح .. وحماية اليهود الذين يعيشون فى إيران حتى يحين موعد هجرتهم إلى إسرائيل وربما كانت هذه خدعة جديدة لتوريط وعقاب إيران بعد ليبيا.

وقد سجل ستروفيسكى شهادته على شريط فيديو وسيرسله إلى المحكمة التى ستحاكم المتهمين الليبيين فى هولندا .. وستروفيسكى هو صاحب الكتاب الشهير «بطريق الخداع» الذى كان أول مسمار فى نعش الموساد .. وفيه تحدث عن تجربته .. وفساد الجهاز .. وقياداته .. والتزوير فى عملياته .. وقد وصف تجربة عاشها بنفسه

وهو ضابط تحت التمرين فى أكاديمية الموساد (وهى فى مكان معزول عند تل منحدر فى تل أبيب) فى أغسطس عام ١٩٨٤ .. فقد شاهد على حمام السباحة قيادات الموساد الكبار عرايا .. هو ومجندات تتراوح أعمارهن ما بين ١٨ و ٢٠ سنة .. والغريب أن هذه الحفلات كانت تجرى فى وجود جواسيس تحت التمرين .. يجلسون أمام هذه القيادات فى اليوم التالى لتلقى الدروس والخبرات.

وكانت هناك فضيحة أخرى .. ففى شمال تل أبيب منطقة تسمى «باراك» تنتظر فيها العاهرات الرجال الذين يأتون بسياراتهم ويلتقطونهن.. ثم يذهبون خلف التلال الرملية لبعض الوقت .. ثم يرحلون.. وقد قرر بعض ضباط الموساد أن يأخذوا أجهزة التصوير الليلية ويجلسوا على القمة بالقرب من التلال الرملية .. ويصوروا بنات الهوى فى السيارات .. مستخدمين عدسات الزووم القوية .. ثم يقوموا بالابتزاز .. وكان ضابط الموساد قد تعلموا الدخول على كمبيوتر الشرطة دون علمها .. وأتاح ذلك معرفة صاحب السيارة وعنوانه بمجرد معرفة أرقام اللوحات المعدنية .. وبهذه الطريقة يمكن ابتزاز صاحب السيارة أو الاتفاق معه على مبلغ معين مقابل الصور.

على أن الأخطر من هذه الانحرافات الأخلاقية والانحرافات السياسية وجرائم القتل والتزوير والتجسس على الأصدقاء قبل الأعداء .. إن السفارة التى قال الرئيس كلينتون لعشيقته مونيكا إنه يخشى تنصتها على مكالماته العاطفية معها هى السفارة الإسرائيلية فى واشنطن .. ويقول المؤلف جوردن توماس إن قادة الموساد ظلوا فى اجتماعات استمرت ثلاثة أيام يبحثون أفضل وأقصر السبل لاستغلال هذه المكالمات التى سجلوها بوضوح فى الضغط على كلينتون لتفادى وعوده للفلسطينيين.

بل أخطر من ذلك كانت الموساد على علم بخطة تفجير معسكر ومقر قيادة قوات البحرية الأمريكية (المارينز) فى بيروت عام ١٩٨٣ .. لكنها لم تقم بتحذير الأمريكيين .. لتجبرهم على مغادرة لبنان .. وكانت تعليمات مدير الموساد فى ذلك الوقت نحوم ارمونى: دعهم يموتون .. دعهم يخرجون .. دعهم يذهبون إلى الجحيم .. وقد تركت الموساد ويليام بكلى (مدير محطة المخابرات الأمريكية فى لبنان) فريسة ورهينة تحت رحمة مختطفيه الذين عذبوه حتى الموت .. وهو ما جعل ويليام كيسى المدير السابق لوكالة المخابرات المركزية يقول فى مذكراته التى

صدرت بعنوان «الرجال الشرفاء»: لقد وفر الإسرائيليون فى ذلك الوقت الأسلحة لحزب الله ليقتلوا المسيحيين .. ووفروا الأسلحة للمسيحيين ليقتلوا الفلسطينيين.

ويكشف المؤلف: أن سائق سيارة الأميرة ديانا وصديقها المصرى الأصل دودى الفايد كان مرشداً غير يهودى للموساد .. وكانت مهمته تقديم جميع المعلومات عن الضيوف العرب الذين يصطحبهم .. وكان عليه أيضاً أن يزرع فى غرفهم ميكروفونات التجسس .. وقد كان يعانى الاكتئاب بسبب ضغوط الموساد عليه .. ومن ثم ربما تناول أدوية ضد الاكتئاب أدت به إلى الحادث .. وربما تعمد أن تصطدم السيارة فى النفق حتى يتخلص من ضغوط الموساد .. لكن .. من المؤكد أن الموساد لعبت دوراً فى رفض بريطانيا منحْ محمد الفايد الجنسية .. ومن المؤكد أن الموساد أسهمت فى تغذية المخاوف البريطانية من أن أم وريث العرش قد تتزوج عربياً مسلماً، وقد تنجب منه وقد تتحول هى أيضاً إلى الإسلام.

وهذه القصة تعيد إلى الأذهان اتهام الموساد بأنها كانت وراء مقتل رئيس الوزراء الإسرائيلى الأسبق إسحق رابين .. فحسب ما سبق أن نشره ستروفيسكى، فإن الموساد لم تكن تحب رابين .. وكان السبب أنه كان يطالبهم دائماً بمعلومات طازجة وليست معلومات مخمرة كالتى اعتادوا عليها .. وهذا ما جعل الموساد فى موقف محرج أمام رابين فى وقت كان فيه رئيساً للوزراء .. لذلك لم تتردد الموساد فى اللعب ضده فى انتخابات عام ١٩٧٧ بتفجير فضيحة حسابه بالعملة الصعبة فى بنك أجنبى .. إن القانون فى إسرائيل يمنع أن يكون لأى مواطن حساب فى بنك أجنبى فى أى بلد آخر .. وكانت زوجة رابين لها حساب بمبلغ ١٠ آلاف دولار تسحب منه عندما تسافر بالرغم من أنها زوجة رئيس الوزراء وكل مصروفاتها تدفعها الحكومة .. وكانت الموساد تعلم بهذا الحساب .. وكان رابين يعرف أنهم يعرفون .. لكنه لم يأخذ الأمر مأخذ الجد .. وفى الوقت المناسب قدمت الموساد المعلومات والمستندات الدامغة للصحفى الإسرائيلى مار جاليت .. وبعد نشر الفضيحة كان من السهل على مناحم بيجن أن يسحق رابين فى الانتخابات .. وعندما عاد رابين لرئاسة الحكومة كان العداء بينه وبين الموساد قد وصل إلى الدم .. ومن ثم لم يكن من الصعب تركه دون حماية أو تحذير ليقتله المتطرفون اليهود.

ويكشف الكتاب ملفات عملاء الموساد فى دوائر الفلسطينيين .. ومنهم دوراق

قاسم سائق ياسر عرفات وحارسه الخاص عندما كان فى بيروت.. وقد جندته الموساد فى عام ١٩٧٧ عندما كان يدرس الفلسفة فى لندن.. وكان يخبر الموساد بكل المعلومات من خلال جهاز الراديو .. ويتسلم ألفي دولار عن كل تقرير .. وكذلك كان يقوم بتبليغ المعلومات بالتليفون.. ويرسلها أحياناً بالبريد .. وكثيراً ما كان يجرى اتصالاته بالموساد من داخل مركز قيادة منظمة التحرير الفلسطينية .. وقد ظهر فى غواصة إسرائيلية كانت مركز الموساد فى بيروت .. وأغلب الظن أن كشف مثل هذه الملفات فى هذا الوقت - الذى تعانى فيه الموساد من فشلاً وراء فشل حتى باتت سمعتها القديمة وشهرتها العريضة فى خطر - هو محاولة لإعادة الثقة لهذا الجهاز الذى لا يزال يلعب دوراً بارزاً فى الحرب الباردة المشتعلة الآن، وبعد تقلص فرص الحرب الساخنة بين العرب وإسرائيل.

لكن .. هذا لا يمنع أن الموساد - التى كانت تجند عملاءها من العرب بدعوى حمايتهم - قد كشفت لأول مرة أن من السهل كشفهم وبيعهم إذا ما لزم الأمر .. كما هو واضح فى قصة عميل الموساد الذى لقبوه أبو هنداوى .. وهو عميل فلسطينى تسبب فى قتل ١٥ من أعضاء منظمة التحرير الفلسطينية .. وقد سافر إلى لندن للحصول على شهادة جامعية فى الهندسة .. وهناك اتصل بابن عمه نزار هنداوى عارضاً عليه العمل مع المنظمة .. وكان فى الحقيقة ينوى تجنيده للموساد .. وكان على «أبو هنداوى» أن يتصل بالجيش الجمهورى الأيرلندى للحصول على أسلحة منه للمنظمة .. وفى خلال ذلك تعرف على فتاة أيرلندية اسمها أن مارى ميرفى - وكانت تعمل نادلة فى فندق هيلتون - وأسفرت العلاقة عن حمل فى الحرام .. وكان ذلك فى فبراير عام ١٩٨٦ ولكنها لم تقدر على إجهاض نفسها بسبب مذهبها الكاثوليكى .. فراحت إلى أيرلندا لتضع طفلها .. وفى الوقت نفسه، تلقى «أبو هنداوى» تعليمات من الموساد بتزوير أو تلفيق عمل من شأنه إغلاق السفارة السورية فى لندن.. رداً على إجراء مماثل اتخذته الحكومة البريطانية بإغلاق مكتب الموساد هناك.

وأعطى أبو هنداوى ابن عمه نزار مبلغ ١٠ آلاف ليسلمها إلى مارى ميرفى .. مصاريف سفرها ومصاريف الولادة حتى تقنع أهلها بأن يتزوجها .. لكنه طلب منها - حسب الخطة - أن تسافر إلى إسرائيل بدلاً من أيرلندا لتضع طفلها .. وأبلغها أن شخصاً ما سيقابلها فى

مطار هيثرو وهى فى طريقها إلى تل أبيب ليعطيها لفافة ما عليها حملها معها.

فى مطار هيثرو- وبعد أن ودع نزار الفتاة- تقدم منها عامل نظافة- هو فى الحقيقة أحد عملاء الموساد- وقال لها إنها تحتوى على أموال عليها تسليمها إلى مندوب منظمة التحرير فى إسرائيل .. وإذا كان هناك ما يمنع- بسبب قوانين النقد البريطانية- من حملها معها .. فعليها أن تعيدها إلى نزار الذى كان لا يزال فى المطار .. على أن يحملها نزار معه إلى مكان آمن هو السفارة السورية .. وهو ما حدث بالفعل .. فقد عادت اللفافة من الفتاة- عبر عامل النظافة- إلى نزار ومنه إلى أبو هنداوى الذى حملها إلى السفارة السورية .. وفيما بعد ثبت أن اللفافة تحوى مادة شديدة الانفجار .. وهو ما جعل السفارة السورية متورطة فى مساندة الإرهاب دون أن تكون على علم بما جرى .. وقد سارعت مارجريت تاتشر رئيسة الوزرَاء أيامها بالتقاط الطعم والوقوع فى الفخ.. وقطعت العلاقات مع سوريا .. وحكم على أبو هنداوى- عميل الموساد الذى باعته الموساد- بالسجن ٤٥ سنة .. بعد إدانته بتهمة محاولة تفجير طائرة ركاب .. كان على متنها خطيبته التى لا تزال مقتنعة حتى الآن بأنه كان يريد قتلها.

وقد أبرز القضية فى الصحافة البريطانية ناشر صحيفة ديلى ميرور «روبرت ماكسويل» .. وهو واحد من أهم وأخطر رجال الموساد فى بريطانيا، ولكنه أيضاً كان ضحية الموساد .. فقد قتلته الموساد وهو على اليخت الخاص به فى جزر الكنارى .. وقد حملوا جثته التى وجدوها على الشاطئ إلى إسرائيل ودفن هناك على عجل ودون تشريح .. وكان سبب الخلاف هو أنه طالب الموساد برد المبالغ التى أنفقها على كثير من العمليات فى لندن والتى كان يأخذها من صندوق معاشات لموظفى ومحررى الصحف .. فكان أن قتلوه على هذا النحو الذى يعنى أن الموساد أصابها سعار القتل والدم .. وأنها لم تعد تعرف الفرق بين الأصدقاء والأعداء .. وأنها فقدت قواعدها الصارمة فى حماية العملاء.. وعدم التخلص منهم مهما كانت الأسباب.

لكن رغم ذلك .. فالكتاب يحاول أن يعيد الثقة فى الموساد من خلال فتح ملفات عمليات نفذها بنجاح .. ولو «بطريق الخداع» على حد وصف فيكتور ستروفيسكى.. على أن هذه المحاولة التى جعلت الموساد تسترد الإحساس بالقوة .. بأثر رجعى .. جاءت بمصيبة أشد .. وهى فقدان ثقة العملاء الجدد فى هذا الجهاز الذى أصبح قبيحاً.

١٥ جريمة الموساد فى أمستردام

أمستردام هى مدينة الزهور .. وعقار الهلوسة .. والعلاقات الفاضحة فى الهواء الطلق .. ومنفى الدكتور نصر أبو زيد .. ومركز الموساد الشرس فى أوروبا .. هى مدينة مسكونة بالجرأة .. لا تتناقض مع نفسها.. ولا تعانى من التمزق النفسى .. فيها كل شئ واضح .. سافر .. لكنها تتصرف على طريقة رجال المخابرات .. فلا تعطى سرها لأحد.. ولا تلبس ذات الثياب .. ولا تترك بصماتها على ما تفعله.

فى أمستردام الآن .. فضيحة من الوزن الثقيل لإسرائيل .. أقامت الدنيا ولم تقعدها .. وفتحت أبواب جهنم على الموساد.

إن الانتصار القذر الذى حققه الموساد بتدبير عملية اختطاف الزعيم الكردى عبد الله أوجلان فى كينيا لم يخفف من دوى الفضيحة فى هولندا.

والفضيحة ولدت فى خريف ١٩٩٢ .. لكنها لم تكشف إلا فى شتاء ١٩٩٩ .. وكأن القرن القادم ـ الذى أصبح على الأبواب ـ أبى أن يفتح أبوابه للعالم دون التخلص من رواسب ونفايات القرن الحالى الذى بدأ يشيخ .. ويتجعد .. وأصيب

بالخرف .. وبدأ يتصرف برعونة وحماقة .. رافعاً شعار «يا رايح كتر من الفضايح».

كان يوم ٤ أكتوبر ١٩٩٢ هو يوم أحد .. والهولنديون فى يوم الأحد يشعرون أنهم كمن يمتطى جواداً أبيض .. فهم ينتقلون من حديقة إلى مطعم .. ومن مباراة كرة قدم إلى ساحات الرقص والغناء العامة .. ولكن .. فى مساء ذلك اليوم أهدى الموساد شحنة هائلة من الإثارة إلى الهولنديين لم يشهدوها من قبل فى حياتهم .. فقد وجدوا طائرة الخطوط الجوية الإسرائيلية المعروفة باسم «العال» وهى من طراز بوينج - ٧٤٧ ترتطم بمجمع سكنى هائل يسمى مجمع بيملير .. وهو مجموعة من البنايات الضخمة .. حاولت طائرة الركاب الإسرائيلية المرور بين اثنتين منها .. فى مسافة لا تزيد على ٢٠ متراً .. ونجح الطيار .. لكن كانت هناك بناية ثالثة فى مواجهته فلم يجد مفراً من الدخول فيها .. وفوجئ سكانها الذين كان أغلبهم يشاهد التليفزيون بالطائرة تدخل بيوتهم .. ولم يستطع أحد منهم فهم أو استيعاب ما حدث .. فقد كانت الصدمة أشبه بصاعقة يوم القيامة.

حفرت الطائرة حفرة قطرها ٦٢ متراً وشطرت البناية ومزقتها وكأنها بناية من الكرتون وعلت سماء المدينة كتلة هائلة من النيران بدت مع جو الخريف الرمادى مثل شمس برتقالية .. وتصور البعض - المتأثر بأفلام الخيال العلمى - أن هجوماً من سكان المريخ قد بدأ على بلادهم.. ولكن مع صوت الانفجارات المدوية الذى صم الآذان أدرك الناس طبيعة الكارثة .. ومع خروج جثث القتلى - الذين قيل أن عددهم ١٥٨٠ ثم خفضوا العدد إلى ٢٥٠ بعد الضغوط الإسرائيلية - استوعب الناس كل ما جرى.

وسارع عمدة أمستردام «أدى فان تاين» إلى رفع الأنقاض وانتشال جثث الضحايا وتجميع القطع البشرية المتناثرة وتعويض أصحابها خلال ٤ أيام فقط وهى معجزة بيروقراطية بكل المقاييس .. لم يفهم أحد سرها إلا فيما بعد عندما كشفت أسرار ما كانت الطائرة المدنية الإسرائيلية تحمله على متنها .. غير الزهور والعطور وقطع

غيار أجهزة الكومبيوتر.

كان عمدة أمستردام يريد إغلاق ملف الحادث بأسرع وقت ممكن.. وقد نجح هو وغيره من رجال إسرائيل فى هولندا فى ذلك لمدة تزيد على السنوات الست .. لكن الصحافة ـ التى يمقتها أنصار الفساد وعلاقات الظلام ـ كشفت كل الأسرار فى فبراير عام ١٩٩٨ .. ولا تزال تواصل كشف المزيد منها.

كشفت الصحافة الهولندية ـ وعلى رأسها صحيفة N R C ذائعة الجرأة أن طائرة «العال» كانت تحمل ٢٤٠ كيلو جراماً من مادة «ديميثيل ميثيلفوسفونات» والمعروفة باسم عالمى هو DMMP وهى ـ حسب ما نشره مراسل الحياة فى أمستردام فى عدد الخميس ١١ فبراير ١٩٩٩ ـ المكون الأساسى لغاز السارين الذى يعتبر أكثر الغازات السامة خطراً على وجه الأرض وهو يتجاوز بخمس مرات قوة غاز الأعصاب الذى يفقد الإنسان تماسكه ويحوله إلى كيان رخو.

لقد سقطت الطائرة على سكان العاصمة الهولندية وهى تحمل غازات سامة محرمة دولياً .. ومن لم يمت من ارتطام الطائرة .. مات مخنوقاً بهذه الغازات .. وهذا هو سر الرائحة العفنة التى صاحبت الحادث دون أن تجد من يفسرها .. أو يكشفها .. أو يطالب بمعاقبة إسرائيل أو محاسبتها أو فرض الحصار عليها .. كما حدث مع ليبيا فى قضية لوكيربى التى أثبتت أن القوى العظمى قطعت جسورها مع الله .. وبالتالى قطعت جسورها مع العدالة التى لا تطالب بها سوى الدول العربية والدول الضعيفة فى الجنوب .. أما إسرائيل فهى طفل مدلل تجلس أمام سريره متيمة وتغمر خديه بالقبلات .. وتطعمه ـ كلما أخطأ ـ المزيد من الحلوى.

وأكبر دليل على تدليل إسرائيل أنها لم تعاقب على تصرفها بحماقة فى هذه الفضيحة .. فقد أثبتت الوثائق التى نشرت أخيراً فى هولندا أن قائد الطائرة كان يمكنه الهبوط ـ بعد عطل محركين فيها ـ فوق سطح بحيرة ايسليمر المجاورة لمكان الحادث .. أو فى الحقول القريبة من مطار أمستردام ـ المعروف باسم سخيهبول ـ

الذى انطلقت منه قبل أقل من نصف ساعة .. ولكن ضابط الموساد «جيرون بليتنبرغ» الذى كان على متن الطائرة أصر على العودة للمطار حتى لا تنكشف شحنة الغازات السامة التى تحملها الطائرة لو هبط فى مكان آخر .. فهو قادر بما له من نفوذ وعملاء فى المطار على السيطرة على كل شئ .. كما أنه لم يتوقع أن تحدث الكارثة على هذا النحو .. كذلك فإنه أجبر قائد الطائرة على تنفيذ تعليماته التى ثبت أنه تلقاها من قيادته فى تل أبيب.

وقد جاءت الشحنة من الولايات المتحدة فى تكتم شديد لتصل إلى إسرائيل عبر هولندا .. ولكن تحقيقات البرلمان الهولندى كشفت عن أن الطائرة لم تكن تحمل غازات سامة فقط وإنما مواد خاصة بالصواريخ التى تحملها الطائرة الحربية إف ١٦ وعند هذا الحد من المعلومات بدأت الحكومة فى حجب المعلومات عن الصحافة .. ورفضت الإفراج عن المزيد من المستندات .. على أن العديد من الصحف تضامن فيما بينها وأقامت دعوى قضائية ضد الحكومة لإجبارها على التراجع فى قرارها .. وكشف ما لديها من مستندات .. وكسبت الصحف القضية .. وخرجت المستندات والوثائق الدامغة على اختراق الموساد للعديد من الأجهزة الهولندية .. خاصة المطارات والمسئولين فيها.

لكن هذه المستندات لم تقل أين اختفى الصندوق الأسود الذى يحوى جميع أسرار الطائرة واتصالاتها؟ .. ولم يقتنع الرأى العام بما قالته وزيرة النقل والمواصلات .. أن الصندوق فقد فى القمامة أثناء عملية جمع الحطام .. وكان واضحاً أن هذه الكذبة هى الحل الوحيد لأخفاء العلاقات التحتية الخفية بين الموساد وهولندا.

كذلك لم تقدر الوثائق على تفسير أو تبرير من أطلق عليهم «أشباح بيلمير» وهم ٤٠ رجلاً كانوا يرتدون البلاطى البيضاء ويضعون على وجوههم كمامات .. وقد ظهروا فى مكان الحادث وبعد وقوعه بقليل .. وراحوا يفتشون فى بقاياه وحطامه .. من العشاء إلى الصباح وقد اتضح فيما بعد - حسب ما ترجم عن صحيفة فولكسكرانت

- أن «أشباح بيلمير» هم فى الحقيقة فريق من الموساد .. وكان أن أحس الهولنديون بالإهانة من تدخل يد أجنبية فى شئونهم الداخلية وهو ما زاد من حجم الفضيحة التى كشفت أن هناك من داخل الحكومة من ساعد الموساد على ذلك.

بل ثبت أن الحكومة الهولندية أمرت جميع موظفيها فى المطار بعدم التدخل فيما يجرى فى مكاتب شركة «العال» ولا فى مراكز صيانة طائراتها .. وثبت أن الطائرة التى سببت الكارثة كانت فى وضع سيئ قبل إقلاعها .. ولكن طاقمها رفض المساعدة الفنية حتى لا ينكشف أمر ما تحمله .. وأقلعت الطائرة على مسئولية قائدها .. ولم يقبل مهندسو الصيانة فى المطار التوقيع على صلاحية الطائرة لكنهم لم يتصوروا أن الكارثة يمكن أن تقع فى بلادهم وأن تصيب مواطنيهم .. وهو ما جعل بعض أعضاء البرلمان يطالبون بمنع «العال» من الاقلاع أو الهبوط فى المطارات الهولندية مهما تكن الظروف .. لكن .. كان للحكومة رأى آخر.

والأخطر من ذلك أن الموساد قدم وثائق مزورة تحاول إقناع الرأى العام فى هولندا أن الطائرة كانت خالية من العيوب قبل الإقلاع .. ولكن الصحف هناك قدمت الوثائق الإسرائيلية المزورة .. وإلى جانبها الوثائق الهولندية الحقيقية .. وهو ما زاد من إحساس الحكومة الهولندية بالحرج .. وقد أكد ذلك محامى أسر الضحايا «بوب فان خون» الذى قال: إن إسرائيل والحكومة الهولندية فعلتا المستحيل لإخفاء حقيقة شحنات الغازات وعتاد الصواريخ حتى لا يتصور الرأى العام أنها سبب الكارثة.. وحتى لا تطالب أسر الضحايا بمبالغ أكبر مما هو متوقع فى مثل هذه الكوارث.

لقد أصبحت إسرائيل تحت جلد وتحت أظافر العالم .. وهى لا تعترف بحياد أحد.. ولا تعترف بجلوس أحد فى مدرجات المتفرجين .. لابد أن يكون الجميع طرفاً فى اللعبة المثيرة .. وأن يصبح شجرة من أشجار الغابة المحترقة .. لابد لأى دولة فى العالم أن تسكن الحواس الإسرائيلية.. وألا تكون بعيدة عن مرمى هذه الحواس.

لذلك لم تكن صلة إسرائيل بهولندا صلة طارئة كشفها الحادث .. فقد اشتبكت

وتشابكت علاقتهما معاً منذ عقود بعيدة رصدتها صحيفة «الحياة» فى الدور العسكرى الذى لعبته شركة العال فى مطارات هولندا منذ حرب «السويس» فى عام ١٩٥٦ وقد اعترف رئيس وزراء هولندا قائلاً: إنه وحتى الآن لا يعرف على وجه الدقة طبيعة وتفاصيل عمل شركة العال فى أمستردام» واستطرد: لقد أرسلت عدة وزراء إلى إسرائيل لإزالة الطابع السرى لتحركات العال .. ولكن كل المحاولات فشلت.

وتواصل «الحياة» إن ٦٠ طائرة عسكرية إسرائيلية حطت على مطار أمستردام الدولى فى الفترة ما بين ١٩٩٠ و١٩٩٦ كان ١٤ منها تنقل معدات تدخل فى نطاق الأسلحة غير التقليدية التى تعرف بأسلحة الدمار الشامل .. ولم تنجح هولندا فى معرفة حمولة الطائرات العسكرية.

ورغم ذلك لم تدخل إسرائيل فى تقارير مدير المخابرات المركزية «الأمريكية» إلى الكونجرس والتى اتهم فيها مصر بتصنيع الصواريخ الباليستية بالتعاون مع كوريا الشمالية ووضعها فى خانة واحدة مع الدول التى لا تعتبر صديقة لواشنطن .. وقد جاءت هذه التقارير بعد ٢٥ سنة من العلاقات المتميزة بين البلدين .. لكن المخابرات المركزية تصاب بالعمى العسكرى والعمى السياسى عندما ترى إسرائيل.. وما فعلته إسرائيل فى هولندا آخر دليل على ذلك كشفته الظروف بعد حادث «مجمع بليمير».

وفى عام ١٩٥٣ دربت هولندا بعض فرق القوات الخاصة الإسرائيلية على عبور الموانع المائية فى شبكة الأنهار الهولندية .. وكانت إسرائيل تخطط لعبور قناة السويس منذ اليوم الأول لإعلانها حسبما جاء فى مذكرات ديفيد بن جوريون أول رئيس وزراء .. وموشى ديان أشهر وزراء الدفاع فى تاريخها.

وفى حرب يونيو ١٩٦٧ زودت هولندا دبابات «سنتوريوك» الإسرائيلية بمحركات إضافية لتتضاعف سرعتها فى صحراء سيناء وتستطيع الاستيلاء عليها فى الوقت القياسى المذهل الذى كان.

وفى حرب أكتوبر ١٩٧٣ أرسلت وزارة الدفاع الهولندية كميات هائلة من المعدات والأسلحة والذخائر نقلت من احتياطى الجيش الهولندى دون علم البرلمان .. بل ودون علم غالبية أعضاء الحكومة .. وقد وقع على الصفقة وزير الخارجية وقتها «ماكس فان دير ستول» الذى أصبح فيما بعد - وهى إحدى سخريات القدر فى الشرق الأوسط - المقرر الحالى لحقوق الإنسان العراقى.

وقد وجد وزير الدفاع «هانس فريد بلينج» للاعتراف بأنه حول وزارته إلى قلعة للدفاع عن المصالح الاسرائيلية بما فى ذلك اعتبار عمليات شركة العال فى مطار أمستردام الدولى شأناً عسكرياً وليس من حق الموظفين التدخل فيه أو الإعلان عنه وهو أمر استمر منذ عام ١٩٧٣ حتى سقوط الطائرة الاسرائيلية فوق أمستردام .. ووصفت الصحافة الهولندية ما قاله الوزير انه إعلان فاضح عن أن شركة العال فى هولندا - حكومة داخل حكومة».

لكن .. ما الذى يجعل هولندا تخشى إسرائيل إلى هذا الحد؟ .. لماذا تصر على التستر على جرائمها؟ .. إن الإجابة تأتى من إسرائيل أيضاً على لسان كاتبها المتخصص فى تاريخ المخابرات «راى مليمان» الذى يقول «ان هولندا تخشى كشف عمق التعاون الوثيق مع إسرائيل فى نقل مواد استراتيجية طيلة الأعوام الماضية .. أى أن الخطأ يؤدى إلى مزيد من الخطأ .. والابتزاز يؤدى إلى مزيد من الابتزاز .. وهذه عادة الإسرائيليين ولن يشتروها.

لقد كنا نتصور هولندا مجتمعاً ناعماً .. يعيش على الزهور والموسيقى والحليب .. ويضع سكانها على رأسهم «ريشة» .. كنا نتصورها دولة فى حالها .. لا تجد مبرراً لأن تعادى العرب .. ولا أن تستسلم لإسرائيل على هذا النحو .. ولكن يبدو أن فى الأعماق دائماً .. خبايا .. وخبايا .. وليست هذه الخبايا فى هولندا فقط .. وإنما فى معظم دول العالم أيضاً .. فقد نجحت إسرائيل فى احتلال معظم المواقع التى كنا نؤثر فيها .. من كتلتى الصين والهند فى آسيا إلى منابع النيل فى افريقيا .. ونحن

لا نلومها على ذلك .. فكل دولة لها الحق فى الدفاع عن مصالحها .. لكننا نلوم أنفسنا .. فى معظم الأحيان نتصور أن الأصدقاء لن يتخلوا عنا لأنهم أصدقاء .. وهى قاعدة لم تعد تصلح فى علاقات البشر .. فما بالنا بالعلاقات بين الدول.

على أن أكثر ما أصابنى بالذهول هو عدم الاهتمام الواضح والمكثف فى عالمنا العربى هذه الفضيحة التى جرت فى هولندا وتقديمها للمجتمع الدولى على طبق من اللحم المشوى فى وقت لا تزال فيه قضية «لوكيربى» تمر فى عنق الزجاجة .. وأتصور أن المأساة الإسرائيلية فى أمستردام ليست مجرد كارثة من كوارث الطيران، وإنما هى جريمة قتل جماعية مع سبق الإصرار والترصد، فالطائرة تحمل مواد محرمة دولياً وهبطت وأقلعت من مطار مدنى ولم تخضع حفاظاً على السرية لإجراءات الصيانة أى أن ما جرى مغامرة من مغامرات الموساد لم يهتم فيها جهاز المخابرات فى إسرائيل بحياة أبرياء كانوا يعيشون حياتهم فى بيوتهم فى نهاية الأسبوع ولم يتصوروا أن يجدوا طائرة تدخل عليهم غرف نومهم وغرف معيشتهم من النوافذ أو تخترق الجدران .. وأتصور أنه لو كانت دولة عربية هى التى فعلت ذلك لقامت القيامة ولكانت الآن تحت الحصار الدولى وممنوع على شعبها الحياة.

إننى لا أؤمن بأن العالم يكيل بمكيالين كما نردد كالأسطوانة المشروخة ليل نهار وإنما العالم لا يعترف سوى بمكيال واحد هو القوة الأقوياء هم الذين يفرضون قانونهم على العالم أما الضعفاء فهم الذين يولولون ويلطمون ويمزقون ثيابهم ويجيدون المشى فى الجنازات ولا أشعر بالملل من أن أكرر ما كان يردده معظم رؤساء الحكومة فى إسرائيل فى مذكراتهم .. العالم لا يحترم سوى الأقوياء ولا يشفق على المذبحين والتاريخ تصنعه الأحذية السوداء الغليظة ولا تصنعه قصائد الشعراء العرب الذين ذبحوا جيادهم على طريقة حاتم الطائى وقدموها لضيوفهم وعندما جاء وقت القتال وجدوا أنفسهم بلا جياد وبلا سلاح فعادوا من جديد إلى السبات العميق الذى يوصف بلغة القاموس العصرى بالغيبوبة..!!

١٦ الديمقراطية ولعبة الكلاب البوليسية

فى هذه اللحظة كان لابد أن تستدعى ذاكرتى البعيدة قصيدة بابلو نيرودا الشهيرة التى يهاجم فيها الانقلابات العسكرية ويصفها بأنها إقامة قلقة بين شفاه الغول .. ووضع رقاب شعب بأكمله تحت سيف مسلول .. ولا أحد يقول .. لا أحد يعرف اسم القاتل .. واسم المقتول .

فى هذه اللحظة كان لابد أن تستدعى ذاكرتى القريبة ما قاله الروائى الكولومبى الحائز لجائزة نوبل جارسيا ماركيز فى روايته «خريف البطريرك» عن حكم الجنرالات الصارم المؤلم الذى لا نجم فيه يسطع .. ولا أرض تحبل .. ولا شعوب تتعلم أو تتأمل أو تتذكر .. أنها فقط تتناسل فى الغرف المغلقة .. وتعيش فى توابيت من رخام .. وتلعق حذاء أى نظام .. وتنتقل من فصيلة الإنسان إلى فصيلة النعام .

فى هذه اللحظة كان لابد أن تستدعى ذاكرتى المباشرة ما جاء فى تقرير المعهد الاستراتيجى فى لندن منذ ١٠ سنوات عن نهاية أسلوب الانقلابات العسكرية كوسيلة من وسائل تغيير السلطة فى الدول الفقيرة غير الديمقراطية .. واعتبارها وسيلة قديمة .. دخلت متحف التاريخ .. مثلها مثل الديناصورات المنقرضة فى هذه اللحظة . التى راحت ذاكرتى تقلب كل ما فيها على هذا النحو . كنت أتابع بذهول واضح ومفاجاة كاملة الانقلاب العسكرى الذى وقع أخيراً فى باكستان وقام به الجنرال برفيز مشرف ليطيح بالحكم المدنى الذى كان يمثله رئيس الحكومة نواز

شريف .. وشعرت أن الديناصورات خرجت من متحف التاريخ السياسى ودبت فيها الحياة وراحت من جديد تعيد الزمن للوراء .. وكان كل الخيرات الديمقراطية التى كافحت الشعوب الفقيرة فى الجنوب من أجلها ضاعت هباء .. ان ما جمعته «نملة» الديمقراطية فى عقود طويلة أخذه خف «جمل» العسكرية فى دقيقة واحدة.

لقد عادت الصورة القديمة للانقلاب لتفرض نفسها من جديد بعد أن كانت قد اختفت وتوارت .. صورة الشوارع الخالية من البشر .. تسيطر عليها الدبابات والمدرعات ونقاط التفتش والمراقبة الصارمة .. صورة رئيس الأنقلاب بملابسه الصفراء ونياشينه التي تغطي صدره وهو يلقى بالبيان رقم واحد عبر الأثير وشبكات التليفزيون .. مبشراً بسقوط قوى الشر .. وصعود قوى الخير .. ومهدداً بسحق وسحل كل من لا يعجبه بيانه .. صورة الشرطة العسكرية التى تلغى القانون وتفرض الأحكام العرفية وتلقى القبض على المشتبه فيهم سياسياً وتفتح المعتقلات والسجون وتحشر فيها كل من تتصور أنه خطر عليها .. صورة بشر يسيطر عليهم اليأس والاحباط والشعور بأنه قد كتب عليهم الحكم العسكرى مهما اختلفت أشكاله وألوانه وكأنه قضاء وقدر لا مفر منهما ولابد أن يلعب قادة الانقلاب على مشاعر الناس ومعاناتهم .. كما وجدنا فى كل الانقلابات .. وكما وجدنا فى الانقلاب الأخير فى باكستان .. فهم يتحدثون عن مواجهة الفساد .. وضرب اللصوص الذين يمصون الفقراء ويثرون على حسابهم .. ويبشرون بعودة القروض المنهوبة من مدخرات البنوك .. وهى تقدر فى حالة باكستان بنحو ١٢٠ مليار دولار .. أعطيت بلا ضمانات لعشرين عائلة فقط .. تسيطر على ٦٦٪ من الصناعة و ٧٩٪ من أعمال التأمين ، ٨٠٪ من الأعمال المصرفية .. بينما أكثر من ٧٥٪ من السكان يعملون فى قطاع الزراعة الذى يعانى متاعب لا نهاية لها أدت إلى أن غالبية السكان تعيش تحت خط الفقر.

لابد أن العسكريين سيبررون نزولهم الشارع وسيطرتهم على البرلمان وتعطيل الحياة المدنية بما يتصور أنه سيغرى الناس بتأييدهم .. ولكن .. الخبرات القديمة فى الانقلابات العسكرية تؤكد أن غياب الحياة المدينة وتعطيل الديمقراطية لا يأتى بالخبز ولا بالشفافية .. بل يأتى بمزيد من الفقر والقهر.

باسم الأسلام والعدالة الاجتماعية سيطر الجنرالات والمشايخ على السودان ..

ولكن .. لا العدالة الاجتماعية تحققت .. ولا التوترات السياسية هـدأت .. بل على العكس .. وجد الناس أنفسهم فى حرب أهلية طائفية .. ووجدوا أنفسهم فى مجاعات يصعب مواجهتها .. بل أكثر من ذلك عادت السودان لنظام الرق والعبودية .. وراحت النخاسة تفرض نفسها على هذا المجتمع العريق .. وبدأت الأمم المتحدة والولايات المتحدة تهددان بالتدخل فى السودان حماية لحقوق الإنسان من البيع والشراء.

وتحت شعارى «الإحياء الاسلامى» و «ضرب الفساد بيد من حديد» قام الجنرال محمد ضياء الحق بانقلابه على رئيس الوزراء الباكستانى ذو الفقار على بوتو فى يوليو ١٩٧٧ .. وكان بوتو قد تسلم السلطة من العسكريين فى عام ١٩٧١ بعد أن فاز حزبه .. حزب الشعب فى الانتخابات التى أجراها يحيى خان .. لكن الاصلاحات التى قام بها بوتو فى مجالات الحياة المختلفة وأخذت طابعاً يتسم بالراديكالية أو الاشتراكية لم تعجب الولايات المتحدة ولا الأحزاب السياسية التى تتاجر بالدين .. ومن ثم كان لابد من التخلص منه .. وإعادة العسكريين للسلطة من جديد.

لقد حظر ضياء الحق النشاط السياسى .. وطويقت الانتخابات الموعودة فى غياهب النسيان .. وفرض الجيش على السلطة .. وفتت المعارضة .. ولكن .. دون أن يهتز الفساد .. أو يفقد شبرا واحداً من الأرض التى يسيطر عليها .. بل أن مساحة نفوذه قد تضاعفت .. وكانت جعلت الثروات الحرام التى تكونت فى ذلك الوقت لا تقل عن ٦٥ مليار دولار حسب التقرير الذى نشره معهد لندن للعلوم الاستراتيجية فى عام ١٩٨٠.

أن هذا الرقم لا يتسم بالمبالغة .. فقد تدفقت الأموال بعد عام ١٩٧٤ من العاملين الباكستانيين فى منطقة الخليج بعد الجنون الذى أصاب أسعار النفط كنتيجة إيجابية من نتائج حرب أكتوبر ١٩٧٣ . . وقد كان الإسلام الذى يعتنقه الباكستانيون هو جواز المرور لهم فى هذه المنطقة خاصة السعودية كذلك فإن ضياء الحق ادرج باكستان ـ التى تقع على ساحل بحر العرب ـ ضمن منطقة الخليج بصورة استراتيجية كاملة .. وقد اكسب هذا التصور قبولاً من إدارة الرئيس الامريكى رونالد ريجان وبلور دوراً لباكستان فى الدفاع عن هذه المنطقة.

وهو ما جعل باكستان من الدول الرئيسية المستفيده من برنامج المعونة الهائل الذى بدأته دول الأوبيك .. فقد حصلت على ١٧٤٤ مليون دولار.

بخلاف الاستثمارات المباشرة للدول النفطية في باكستان والتى بدأت فى منتصف السبعينات بحوالى ٢٠٠ مليون دولار .. ولكن هذه الأموال لم يجن ثمرها الغالبية الفقيرة فى باكستان .. وانما ذهبت إلى جيوب العائلات العشرين العائلات الثرية هناك لتزداد ثراء .. وليزداد الناس فقراً .. وجرت عمليات نصب فى شركات لتوظيف الأموال .. ومضاربات على العقارات .. وفتح البلاد للاستهلاك .. وفى الوقت نفسه كانت البلاد تعانى نقص العمالة الماهرة والأطباء والممرضين والمهندسين الذين هاجروا إلى الخليج .. وتعانى ارتفاع اسعار السلع الأساسية بسبب تصديرها للخارج .. لقد جاءت الأموال بمزيد من الفساد .. وبمزيد من الاضطراب الاجتماعى والصراع النفسى والطبقى.

وفى الوقت نفسه، بدأ شعار «الأحياء الاسلامى» الذى رفعه الجنرال ضياء الحق مثيراً للدهشة .. ولا تقول السخرية .. لقد استغل هذا الرجل العسكرى المعزول شعبياً والمجنون بالقسوة هذا الشعار كهدية هبطت عليه من السماء .. حينما كان يتحدث فى اكتوبر ١٩٨٠ أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة باعتباره المتحدث باسم منظمة المؤتمر الاسلامى عن معارضة الشعوب الاسلامية لضم اسرائيل غير المشروع للقدس .. ووصفت المعارضة ذلك بأنه مسرحية مزيفة لديكتاتور يقوم بتمثيل دور العدالة .. وقالت: أنه جرد الثقافة السياسية الباكستانية من انسانيتها بعمليات الاعدام العلنية التى أحاطت بها عملية دعاية واسعة وبعمليات جلد الكثيرين علنا وداخل السجون.

ومن المفارقات التى تذكرها الناس وهو يتكلم عن المشكلة الفلسطينية أمام الامم المتحدة مرتدياً عباءة الاسلام أنه كان يتولى قيادة كتيبة باكستانية ضد منظمة التحرير الفلسطينية خلال الحرب الأهلية فى الأردن فى سبتمبر عام ١٩٧٠ والمعروفة بماساة «أيلول الأسود».

إن الحكم العسكرى سيظل هو الحكم العسكرى مهما رفع من شعارات مقدسة .. ومهما قام بالعاب الحواة السياسية .. سيظل مسيطرا على سفينة الأحزان التى يقودها ربان .. قرصان .. وفيها يتكوم الناس فى الاقفاص كالفئران .. وهى سفينة حائرة .. لامرفأ يقبلها .. ولا كيان انسانى يدعوها للدخول فى مياهها الاقليمية .. فجواز المرور الذى تحمله اصدره الشيطان .. ومن ثم فإن امامها الغرق أو البقاء خارج الأوطان.

ولا جدال أن الجيش فى الدول الجنوبية الفقيرة والمعدمة والمقهورة يلعب الدور الأكبر فى السياسة .. وفى بعض البلاد التى تعانى من اضطرابات عرقية ودينية مثل تركيا وباكستان يطرح العسكريون أنفسهم باعتبارهم «الضمانة الوحيدة لاستمرار الدولة» .. ويتدخلون فى فرض السلطة السياسية التى تريحهم كما فى تركيا التى ينص الدستور على تدخل الجنرالات للتغيير فى الوقت الذى يحددونه دون تفسير أو تبرير .. وهو نوع من التغيير لا يحتاج فى كثير من الأحيان نزول المدرعات الشوارع.

وهناك أشكال أخرى لتدخل الجيش للتغيير دون اللجوء للقوة البدنية .. أو الانقلاب العسكرى بصورته التقليدية التى تراجعت كثيراً حتى كدنا أن نحسها فى ذمة التاريخ .. ففى اندونيسيا مثلا كان الموقف السلبى لعدم تدخل الجيش فى قمع المظاهرات الشعبية المضادة للرئيس السابق سوهارتو كفيلا بسقوط النظام .. كان عدم التدخل يكفي للتغيير .. وهو ما سبق أن جرى فى السودان فى الانتفاضة الديمقراطية التى أطاحت بالرئيس جعفر نميرى .. فقد قرر القائد الجديد للمؤسسة العسكرية السودانية الفريق سوار الذهب ان يعزل الجيش عن السياسة ويتنازل فى سابقة لم تحدث من قبل عن السلطة.

وفى باكستان نفسها تغير نظام ضياء الحق نفسه بتدبير حادث تحطم طائرة كان يقلها هو والسفير الامريكى الذى كان موته على هذا النحو أمراً لا مفر منه لإبعاد الشبهة عن المخابرات المركزية التى اتهمت بتدبير الحادث.

لقد كان القتل على هذا النحو هو الحل الوحيد أمام القوة الخفية الأمريكية للتخلص من جنرال شديد البطش سد كل منافذ التغيير السليمة .. أن ضياء الحق هو الذى وضع باكستان على خريطة مواقع الأمن الاستراتيجية الأمريكية .. فقد اعتبر بلاده فى خدمة الدفاع عن الخليج .. وكان مستعداً لوضع قوات باكستان المسلحة فى خدمة الاستراتيجية الأمريكية فى المحيط الهندى .. ومنذ التدخل السوفيتى فى أفغانستان على عام ١٩٧٩ كانت باكستان - بفضل حدودها المشتركة مع أفغانستان - هى الطريق الوحيد المتاح لامداد «المقاتلين المناهضين للسوفيت بالأسلحة» والمتطوعين من جميع أنحاء العالم الاسلامى وهم من كانوا يسمون بالمجاهدين .. وهم أيضا من تولت المخابرات الأمريكية المركزية تدريب ٢٠ ألف شاب منهم

على حروب العصابات .. وهم كذلك من عادوا لبلادهم لينشروا الأرهاب والعنف تحت شعار عودة الخلافة والتخلص من النظم الكافرة. ان باكستان أصبحت طرفا مباشراً فى حسابات العسكرية الأمريكية منذ ذلك الوقت وبعد أن أبلغ الأدميرال ل. ج. لونج قائد القوات الأمريكية فى المحيط الهادئ لجنة القوات المسلحة فى مجلس النواب أن «الموقع الاستراتيجى لباكستان انما يتطلب منا أن نحسن علاقتنا الأمنية بها بلا تردد».

وقد استغلت الاستراتيجية الأمريكية العسكرية الباكستانية فى تصفية الوجود السوفيتى فى المنطقة .. تحت شعارات دينية .. لكن .. جاء الوقت لتصبح هذه الشعارات الدينية عبئا ثقيلاً عليها .. وعلى مصالحها فى نفس المنطقة .. فكان لابد أن يتغير النظام فى باكستان .. ويبدو أن هذا التغير ـ الذى تكرر عبر الانتخابات ـ لم يرض الإدارة الأمريكية خاصة بعد أن توصلت حكومة نواز شريف إلى القنبلة النووية وأصبحت باكستان ـ الدولة الفقيرة التى لا تزيد مساحتها على ٩٤٨ ألف كيلو متر مربع وسكانها يقتربون من الثمانين مليون نسمة وعمرها لا يمتد لأكثر من عام ١٩٤٧ ـ قوة اقليمية مؤثرة فيما حولها .. وقادرة على مد نفوذها منفرداً ـ دون حاجة للشريك الأمريكى ـ إلى منطقة الخليج .. وهو تجاوز للخطوط الحمراء بكل المقاييس .. ومن ثم كان لابد من التخلص من الحكم المدنى والعودة للحكم العسكرى الذى يسهل على الولايات المتحدة التفاهم معه دون حساسية أو حسابات.. يبدو أن الأميركيين ـ الذين لا يكفون عن التغنى بالديمقراطية ولا يكفون عن تهديد النظم الديكتاتورية ـ لم يجدوا سوى أسلوب الانقلاب العسكرى لاستخدامه هذه المرة.

ولم يكن مثيراً للدهشة أن تعترض واشنطن على ما جرى فى باكستان .. ولا أن تطالب الجنرالات بسرعة العودة للحياة الديمقراطية فهذه اصبحت مسرحية هزلية.. ولكن المثير للدهشة أن واشنطن سرعان ما اعترفت بالانقلاب ومنحته الشرعية.

لقد عاد للوجود وبمباركة القوة الليبرالية الأولى فى العالم ـ التى لا أمان لها ـ اسلوب الانقلاب العسكرى .. عادت الكلاب البوليسية والامبريالية الأمريكية والنخاسة السياسية .. وهى لعبة لا نجاة للشعوب الجنوبية المقهورة منها سرى الليبرالية والديمقراطية.

١٧ ملف مجهول من الزمن الجميل !

كان قطار العروبة قبل ثورة يوليو بلا سائق .. ولا ناظر محطة .. ولا مفتش تذاكر .. وكان الركاب يحملون معهم أطفالهم وحقائب أحزانهم .. ويسافرون من محطة تحترق إلى محطة فى طريقها إلى الاحتراق .. أما أكثر الركاب حزنا فكان جمال عبد الناصر لأنه أشدهم حساسية .. وأكثرهم قدرة على النبوءة .. وأشدهم إيمانا بأن قدر مصر العربى هو امتدا طبيعى واستراتيجى لأمنها القومى وسلامة البشر الذين يعيشون على أرضها.

فى هذا القطار كان فتحى الديب أحد المسافرين الذين حبستهم الأحداث طوال ثمانية عشر عاما .. وفتحى الديب هو الرجل الذى كلفه جمال عبد الناصر بالتعامل مع العالم العربى .. وهو فى كتابه ـ تحت النشر فى مركز الدراسات الاستراتيجية بالأهرام. «عبد الناصر وتحرير المشرق العربى» لا يخترع الأحداث والوقائع .. وإنما يسجل بالوثائق والمذكرات والتقارير الرسمية ما جرى فى ممرات القطار وفوق مقاعده، وفى غرفة الطاقة ومقصورة القيادة.

إنه كتاب يثبت فى كل صفحة من صفحاته أن ما فعله جمال عبد الناصر لم يكن مغامرة لرجل ضاقت به بلاده. فأراد أن يكون امبراطوراً ممتد القوة والنفوذ .. وإنما كان دوراً أساسياً فرضته عليه قواعد الموقع والموضع ومصلحة مصر الداخلية ..

فمصر لا تكون قوية إلا اذا كان امتدادها العربى مؤثراً .

وربما يكون مثيراً للدهشة، أن نعرف أن بعض المناطق فى العالم العربى وصل إليها البريطانيون واحتلوها واستولوا على خيراتها، بينما بقيت مجهولة ومعزولة لأكثر من ١٠٠ سنة عن المصريين .. إن منطقة عُمان مثلا لم يدخلها مصرى واحد منذ عهد محمد على، إلا بعد أن اتجه بصر مصر ناحية العروبة .. وكان هذا المصرى هو البكباشى (مقدم) على خشبة الذى أصبح فيما بعد واحداً من أشهر السفراء فى الخارجية المصرية .. والذى توفاه الله قبل أيام معدودة .. وشاء القدر ألا يقرأ ما نكتبه عنه.

لقد طلب الإمام غالب بن على ـ وهو أحد الرموز البارزة في عمان ـ من فتحى الديب، أن تتدخل مصر لمساعدة عمان ومسقط ضد نفوذ الاستعمار البريطانى وتوسع أطماعه، التى كانت بلا حدود فى الخليج، الذى كان يعرف فى ذلك الوقت بالخليج الفارسى .. لا الخليج العربى .. وفى ٢٠ يناير عام ١٩٥٥ وافق جمال عبد الناصر بشرط إلا تتورط مصر فى أى خطوة على أرض الواقع قبل معرفة الحقيقة بدقة وسرية .. وهنا جاء دور البكباشى على خشبة الذى كان ملحقا عسكريا فى السعودية .. كان عليه التسلل داخل عمان دون أن يثير شكوك السلطات السعودية فى النيات المصرية .. خاصة أن العلاقات بين البلدين كانت قد عادت إلى طبيعتها بعد فترة كانت فيها عواصف وأعاصير .. ولم يتحمس فتحى الديب ـ المسئول عن تنفيذ المهمة ـ لتسلل على خشبة إلى عمان من ناحية واحة البريمى، نظراً للنزاع الذى كان قائما بين السعودية وعمان بشأن ملكية المنظمة، التى تقع فيها الواحة الحبلى بالنفط والتى كانت تحت السيطرة السعودية المباشرة منذ عام ١٩٥٢،

كان القائمقام (عقيد) أنور السادات فى طريقة إلى زيادة منطقة الخلية، عندما تقرر أن يصحبه فى الرحلة على خشبة .. على أن يتسلل خلالها .. وفى الوقت والمكان المناسبين إلى عمان .. وفى النصف الثانى من فبراير عام ١٩٥٥، بدأ أنور السادات رحلته إلى الخليج ولحق به على خشبة بعد أن زوده فتحى الديب بأسماء العمانيين الذين يمكن الوثوق بهم .. وفى دبى تخلف على خشبة عن الوفد ليجرى

اتصالاته بالعمانيين الموثوق بهم .. وكان منهم شقيق الإمام غالب بن على، الذى اقترح عليه أن يتقدم إلى القنصل البريطانى للحصول على تأشيره دخول لعمان ليزورها باعتبارها مناطق جديدة لم تتح له فرصة زيارتها من قبل .. خاصة أنه قام بزيارة جميع إمارات المنطقة .. واقتنع القنصل البريطانى ومنحه التأشيرة.

وغادر أنور السادات دبى .. وبقى على خشبة فيها أيام حتى يجرى تدبير وتجهيز اللنش، الذى يصلح لنقله إلى الساحل الشرقى لعمان عبر مضيق هرمز .. وحسب التقرير الرسمى الذى رفعه على خشبة فيما بعد إلى جمال عبد الناصر، كانت هذه الرحلة هى رحلة عذاب لهذا الدبلوماسى المصرى الجرئ .. فقد بدأت الرحلة ليلاً واستمرت ٧ أيام .. دار فيها اللنش حول إمارات الشارقة وعجمان وأم القوين ورأس الخيمة ليعبر مضيق هرمز ويوازى شاطئ الفجيرة بخليج عمان حتى وصل بلدة تسمى «مطرح» .. وفى «مطرح» كان عليه أن يسير على الأقدام فى ملابس عمانية ٣ أيام فى طريق جبلى .. عبر ممرات «الجبل الأخضر» .. ليصل فى النهاية إلى «الرستاق» .. مقر الشيخ سليمان بن حمير .. أحد الرموز القومية هناك.

كان لوصول على خشبة إلى عاصمة الجبل الأخضر، رنة فرح لدى الشيخ سليمان بن حمير وأتباعه .. لقد شعروا أن جمال عبد الناصر رغم عزلتهم قريب منهم ويمكن أن يصل إليهم .. وجرى حديث طويل حول قضية عمان وأطماع الانجليز فى بترولها والسيطرة على كل شبر فيها، تحت دعوى التنقيب عن النفط، الذى كانت تقوم به شركات البترول البريطانية .. ولم يبق على خشبة طويلا هناك .. وجهزوا له سيارة خاصة لتنقله إلى «نزوى» عاصمة عمان ومقر الإمام غالب بن على .. وكانت هذه السيارة هى السيارة الوحيدة المتوافرة فى ذلك الوقت فى الجبل الأخضر.

كان على خشبة هو أول مصرى يصل إلى عمان منذ أكثر من ١٠٠ سنه .. وهو ما رفع الروح المعنوية للعمانيين، واستبشروا بقدومه خيراً .. خاصة أن الأمطار هطلت على أرضهم بعد وصوله لأول مرة منذ عشرين سنة كانوا خلالها يعانون

الجفاف والعطش .. وبدأ على خشبة يعرف الحقيقة من لسان أصحابها وبالوثائق التى طالب بها جمال عبد الناصر .. وبدأ يعرف مطالب العمانيين التى على القاهرة أرسالها إليهم .. ودراسة كل نواحى الأمن لضمان وصولها بعيداً عن أعين السلطات البريطانية.

وبعد أن أنهى على خشبة مهمته قرر العودة عن طريق واحة البريمى التى لا يوجد بها اتصال مباشر بنزوى، إلا عن طريق الأبل التى تقطعه في ١٥ يوما .. ولم يكن على خشبة حسن الحظ فى هذه الرحلة .. فلم تمر سوى عدة أيام حتى أصيب بحمى الملاريا .. وبدأت نوبات الأغماء واليقظة تتوالى عليه ولكنه واصل هو ودليله السير بالجمال لتشتد الحمى وتهدده بالموت فى أى لحظة .. واضطر الدليل العمانى - بعد أن وهن جسد على خشبة لعدم وجود العلاج - إلى ربطه على الجمل الذى يركبه ليمنعه من السقوط طوال الأيام الخمسة الأخيرة قبل الوصول إلى واحة البريمى التى وصل إليها فى حالة يرثى لها .. وما أن علم حاكم الواحة بصفته حتى نقله إلى المستشفى ليستغرق علاجه عشرة أيام قضاها يصارع الملاريا حتى كتبت له النجاة .. وإن كان جسده قد فقد الكثير من وزنه وحيويته .

بينما كان على خشبة فى فراشه يتماثل للشفاء ويستمع إلى اذاعة صوت العرب، عرف عبر الأثير أن صلاح سالم فى الرياض .. فسارع على خشبة بإرسال برقية إلى الملك سعود بن عبد العزيز ليخطره بأنه علم بوجود وزير الإرشاد المصرى بينما هو فى المستشفى طريح الفراش .. وطلب نقله بالطائره بصورة عاجلة لاستكمال علاجه فى الرياض ..وجاءه الرد من الملك يخطره برقيا بتلقيه برقيته وإرساله طائرة سعودية إلى البريمى لنقله إلى الظهران .. وأنه سيستمع لأزيزها بمجرد فراغه من قراءه البرقية .. وبالفعل جاءت الطائرة .. ونقلته إلى الظهران ليقضى بها أسبوعين فى ضيافة حاكمها .. وقد جاء خلالها أن يسافر إلى جدة حيث السفارة المصرية ولكن بلا جدوى .. وكان خلال هذه المدة، يستجوب يوميا بطريقة لا تخلو من الرقة لمحاولة التعرف على رحلته الغامضة إلى عمان ثم وجوده فى البريمى .. ولكن بلا جدوى .. فتركوه يسافر إلى جدة للاطمئنان على أسرته .. ثم

سافر لمقابلة الملك سعود .. وحمدت القاهرة الله على نجاة رجلها الذى انقطعت أخباره منذ كان فى دبى قبل أكثر من شهرين تصورت خلالها أن السلطات البريطانية قد قتلته.

وقابل على خشبة الملك سعود .. وكان اللقاء فى شهر رمضان مما خفف من حدة الشك والريبة .. وأحسن الملك استقباله .. وسمع منه بأسلوبه الشيق ـ الذى كان يستهوى أسماع الملك سعود ـ تحركات الانجليز لاحتلال واحة البريمى فى وقت قريب .. وانتهت الرحلة الشاقة والقاتلة بعودة على خشبة إلى القاهرة بعد استدعائه ببرقية مشفرة .. وقدم على خشبة تقريره إلى جمال عبد الناصر، وأشار فيه إلى أنه لا توجد فى عمان حكومة بالمعنى المفهوم للحكومة .. وإن كان هناك مجلس أعلى (أو مجلس شورى) يتكون من ١٥ عضواً يساعد الإمام الحاكم فى إدارة شئون البلاد.. كما يوجد إلى جانبه مجلس أمه يتكون من زعماء القبائل .. لكنه لا يجتمع إلا بناء على طلب الحاكم .. ولا يوجد هناك جيش بالمعنى الحديث .. ويجرى استنفار القبائل فى حالة وجود خطر ما على الإمارة .. وتسيطر بريطانيا على كل شئ فى هذه البقعة المجهولة المعزولة عن عالمها العربى .. بما فى ذلك الطرق والمنافذ ..وتجمعت لدى على خشبة قناعة أن البريطانيين يستعدون لغزو واحة البريمى ووضع أيديهم عليها .. أما مطالب العمانيين من مصر، فكانت هى الأسلحة والمعدات .. وهو ما جعل على خشبة يقترح تدريب الشباب العمانى وتأهيله عسكريا وبالذات لحرب العصابات .. وإيجاد نوع من التنسيق مع السعودية على أعلى مستوى لدعم كفاح الشعب العمانى فى المدى الطويل، للاستفاده من المنافذ البحرية ـ المطلة على الخليج ـ لتهريب الأسلحة والذخيرة مستفيدين من الظروف المحيطة بأوضاع واحة البريمى وتطلع بريطانيا المستتر للسيطرة عليها .. ثم الاستفادة من اذاعة صوت العرب للقيام بحملة دعائية لتعريف الشعب العربى بقضية عمان .. ووضع القضية على مائدة البحث والاهتمام فى الجامعة العربية، التى كانت مثل الزوج المخدوع .. أخر من يعلم.

وفى النصف الثانى من شهر يونيو عام ١٩٥٥ ، وافق جمال عبد الناصر ومجلس

قيادة الثورة، على قرار دعم ومساندة كفاح الشعب العماني .. واستدعى جمال عبد الناصر فتحي الديب، لوضع الخطة اللازمة لتنفيذ القرار .. وبدأت دراسة المنافذ البحرية مع الشيخ طالب بن على لتحديد أماكن تهريب السلاح إلى عمان، بعيداً عن مناطق نفوذ الأسطول البريطاني .. وساهمت الخريطة التي رسمها على خشبة في تحديد مواقع القبائل العمانية .. وتقرر استخدام الطريق البحرى عبر البحر الأحمر إلى المحيط الهندى ثم خليج عمان .. ثم شاطئ عمان .. لإنزال شحنات الأسلحة فى أماكن كثيرة .. سرية وآمنة.

وأبدت القاهرة استعدادها لتدريب ٥٠٠ شاب عماني على حرب العصابات .. وسلمت لمندوب الشيخ طالب بن علي كل ابر ضرب النار الخاصة بالأسلحة التي تقرر ارسالها .. وفى الوقت نفسه، بدأت مصر فى الاستفادة من الوضع المستقر والطيب فى ذلك الوقت فى العلاقات بينها وبين السعودية، والتي وصلت إلى حد اقناع السعوديين بضرورة مساندة شعب الجزائر.. فكان أن تبرعوا بمبلغ ١٠٠ ألف جنيه .. ولكن السعوديين كانوا يشعرون بحساسية فى قضية عمان بسبب الموقف المضطرب فى واحة البريمى.

وقبل أن تصل الإمدادات المصرية إلى عمان، بدأت الأخبار تتسرب عن عملية غزو بريطانية باكستانية لعمان للهجوم على نزوى والرستاق .. ثم كان الغزو وسقوط هذه المدن فى نهاية عام ١٩٥٥ .. واستخدمت بريطانيا الأرهاب وأشاعت الخراب والدمار .. وبدأت المقاومة .. ولكنها كانت مقاومة بلا عتاد أو سلاح .. فقد قررت مصر أن الظرف لا يسمح بتنفيذ الخطة .. ولم يكن أمام مصر فى هذه الظروف غير المتوقعة سوى أن تتبنى القضية على المستوى السياسى الدولي والإقليمى.. فى الأمم المتحدة والجامعة العربية ..

على أنه فى شهر فبراير عام ١٩٥٧، اشتعلت الثورة فى عمان، واستمرت حتى شهر مايو من العام نفسه .. وكان قد أتيح لمصر أن ترسل ما يحتاجه الثوار هناك من أسلحة وعتاد ومدربين .. وكان على رأس الثوار فى المنطقة الشرقية الشيخ إبراهيم بن عيسى الحارثى .. وقد قبض عليه الانجليز ونقلوه إلى السجن .. ورغم

أن ذلك أخمد الثورة، إلا أن الكفاح المسلح وحرب العصابات قد استمرا .. وكان أن تحركت قوات بريطانية تحت قيادة الكولونيل ووتر فيلد .. ولكن بعد أن كانت نزوى قد تحررت .. وهو ما جعل بريطانيا ترمي بثقلها .. وراحت تشن غارات جوية متتالية ويومية .. ونشبت بين جنودها وبين قوات التحرير العمانية الشعبية اشتباكات في أماكن مختلفة .. حتى عادت السيطرة البريطانية من جديد على عمان .. دون أن تنتهي الثورة ولا حرب التحرير، التي استمرت سنوات طويلة .. إلى أن وصلت القضية من جديد إلى الأمم المتحدة في عام ١٩٦٠ .. وبقيت فيها حتى عام ١٩٦٣.

إن هذه القضية التي تنشر لأول مرة، تؤكد أن مصر لم تتدخل إلا بناء على طلب من أصحاب الشأن .. وأن تدخلها في مواجهة قوة استعمارية غاشمة كانت تسيطر على مقدرات المنطقة وخيراتها .. وأن هذا التدخل جرى في وقت مبكر وبأسلوب يناسب الظروف .. وأن هذه التدخل لم يعقه أي شئ .. لا الطبيعة القاسية .. ولا الظروف الدولية الضاغطة .. لقد كانت مصر تريد الحرية والخير للبشر المحرومين منهما في كل شبر في العالم العربي .. ولم تكن تسعى إلى دعاية أو شهرة .. وأكبر دليل على ذلك هو أن هذه القصة التي جرت في وقت مبكر من الخمسينيات في عمان، لم تكشف أسرارها إلا بعد نحو ٤٥ سنة من بدايتها.

ولأن التجربة المصرية لم تكن قد وصلت إلى خبرة كافية، في مجالات العمل الخارجي الخفي والمسلح، فقد كان على المسئولين عن الشئون العربية أن يستفيدوا مما جرى في عمان .. إن فتحي الديب - الرجل الأول في هذا المجال - يعترف بأنهم افتقروا إلى المعلومات الكفيلة بايضاح حقيقة صورة الأوضاع في عمان .. وهو ما أفقد حركتهم الدقة العملية والقدرة المناسبة على التخطيط السليم .. لقد كانت هناك عوائق لم يحسبوا حساباها .. منها أسلوب حياة الشعب العماني الذي كان منغلقا على نفسه لعدة قرون، بعيداً عن الاحتكاك الخارجي .. وسيطرة القبائل عليه .. وعدم تطوره ليساير متطلبات العصر .. فعاش بلا ادارة حكومية منظمة تخطط لاستغلال موارده وتنمية قدراته .. وكانت هناك صعوبة توافر طرق

المواصلات ووسائل الاتصال الحديثة .. وهو ما جعل القوات البريطانية ترهب الناس هناك بغارات الطيران.

ولكن على الجانب الآخر، كانت هناك مكاسب متعددة بخلاف الدخول فى تجربة جديدة مثيرة .. منها خروج الأجيال الجديدة إلى العالم الخارجى، واحتكاكها بالعالم، كما كان له أثر فيما بعد على ما جرى فى عمان من تحديث وتطوير .. ولم تعد للقبائل ما كان لها من سيطرة من قبل .. ومهد كل ذلك للسلطان قابوس بن سعيد للقيام بحركته الاصلاحية والتى بدأت بالنظر إلى العالم بعد أن خرجت عمان من عزلتها.

إن هذه القصة المجهولة فى تاريخ الكفاح العربى، تثبت أن مصر كانت مستعدة أن تصل إلى أى بقعة من العالم العربى، لإضاءه النور فى العتمة التى تسيطر عليها.. ولم يذهب ما فعلته مصر هباء .. لكن أغلب الناس لا يتذكرون .. ربما كانت هناك أخطاء وتجاوزات .. لكن .. كانت مساحة الانجاز أكبر .. ومساحة التوهج أكبر .. وكان العالم العربى مثار احترام وتقدير من الدنيا كلها .. وهو ما تعرض لكثير من المؤامرات والصدمات فيما بعد .. أما الذين يحاسبون مصر وجمال عبد الناصر، على ما جرى فعليهم أن ينظروا بحسرة إلى ما وصل إليه العالم العربى الآن من تمزق وضياع للمواهب والموارد .. وفقدان للقوة والتأثير .. فهل نحن مصرون على شطب المرحلة القومية والناصرية من تاريخنا ؟.. وهل يجب أن نثق فيمن يصر على ذلك ؟.. إننا لا نملك - فى نهاية القراءة المبكرة قبل الطبع لكتاب فتحى الديب المثير - سوى أن نترحم على جمال عبد الناصر .. وعلى «على خشبة» .. وعلى تلك الأيام التى توصف بالزمن الجميل .. ونترحم على أنفسنا .. وعلى ما نحن فيه الآن ..

١٨ إعلان الحرب .. وإعلان الحب

كان يرفض أن يبقى فى المنطقة الرمادية .. الوسطى .. المنطقة الحرام التى لا يعرف فيها الإنسان هل يوافق أم يرفض ؟.. هل يحب أم يكره ؟.. هل يقبل على شخص ما أم يعرض عنه ؟.. هل يعيش سليماً قادراً مكتملا أم يرحل إلى العالم الآخر بكامل إرادته وكرامته ؟.

وقد جاء محمد نسيم نفسه وهو فى غرفة العناية الفائقة بالدور الأول من مستشفى «وادى النيل» فى حالة الاختيار الأخيرة .. فرفض أن يعيش نصف انسان .. يتنفس ولكن لا يتحرك .. يأكل ولكن لا يعمل .. يبتسم ولكن لا يتكلم .. لقد هاجمته أربع «جلطات» بشراسة وسدت شرايين القلب والمخ .. فكان قراره الأخير .. الرحيل .. الرحيل .. لقد تعود أن يحمل الوطن والناس على كتفه فكيف يتحمل ما هوعكس ذلك..؟ إنه معدن نادر من الرجال فى زمن سادت فيه اللدائن الصناعية والأخلاق البلاستيكية.

فى آخر مكالمة تليفونية وجدته يتعجب مما سمع عن مسئول سابق كان يتصور

أن زملاءه فى الحكومة يدبرون له السحر والشعوذة للقضاء عليه وعلى نفوذه .. فقلت له: يبدو أن مهنتك القديمة كرجل مخابرات تطاردك .. يموت الزمار ولكن أصبعه تظل تلعب .. قال: إننا فى أيام لم يعد فيها سر .. ولم تعد المعرفة حكراً على أحد .. أليست هذه هى العولمة التى تحدثوننا عنها ليل نهار ؟.. فقلت له ضاحكا: لقد جاء الزمن الذى أصبح رجال المخابرات يطلبون فيه وظائف فى إعلانات الصحف المبوبة .. وأصبحت فيه أجهزة المخابرات العالمية تطلب الجواسيس علنا وكانها تطلب أطباء أو مهندسين أو خبراء فى العلاقات العامة .. قال: لكن .. رغم ذلك سيظل لهذه الأجهزة دورها .. مهما تغير هذا الدور .. ومهما تغيرت ظروف الدنيا .. إنها المهنة الثانية فى التاريخ .. وستظل تجتذب اقوى العقول .. فميدانها هو الذكاء .. وثمنها قد يكون فادحا .. مصلحة الوطن باكمله.

قلت له: لكن .. هذه الأجهزة كثيراً ما تتجبر .. وتنفلت من عقالها .. وتتجاوز حدودها .. هل نسيت أنك كنت واحدا من اثنين كلفهما جمال عبد الناصر بالتحقيق فى قضية «انحراف المخابرات» فى الساعة الثامنة من صباح يوم ٢٨ اغسطس ١٩٦٧ .. وقد استمر حتى الساعة الحادية عشرة من مساء يوم ١٤ أكتوبر من العام نفسه .. هل نسيت أن التحقيق كان يدور حول سوء استعمال النساء والأموال السرية .. وهو ما جعل من الضرورى استدعاء ٤٤ سيدة وفنانة و ٩ أفراد من خارج الجهاز بخلاف ١٤ فرداً من قوة الجهاز .. حسب اعتراف شريكك فى ادارة التحقيقات الوزير حلمى السعيد فى مذكراته التى نشرت اخيراً .

كذلك دارت التحقيقات حول مبلغ الستين الف جنيه الذى تسلمه صلاح نصر وعباس رضوان .. والسموم التى تسلمها صلاح نصر و منها سم «الاكونتين» وأمر بوضعها فى كبسولات «الريتالين» وتسلمها منه المشير عبد الحكيم عامر .. ثم دارت التحقيقات حول ما عرف بقضية التعذيب .. وكانت النتيجة الحكم على صلاح

نصر بالسجن لمدة ٤٠ عاما .. ثم كان ما كان .. حب ما نشره أمين هويدى فى كتابه «الفرص الضائعة».

وسارع محمد نسيم بالرد: هذه أرقام دقيقة .. لكن .. التحقيقات انتهت بإدانة رئيس الجهاز فى ذلك الوقت صلاح نصر ونائبه حسين عليش الذى كان رئيساً لهيئة الأمن القومى وثلاثة ضباط فقط من داخل الجهاز وثلاثة أفراد أيضا من خار جه .. وهى إدانة شديدة التواضع اذا ما قيست بحجم الضجة التى اثيرت أو قيست بحجم الدور الوطنى الكبير الذى لعبه الجهاز فى وقت كان الصراع فيه شرساً بيننا وبين إسرائيل .. وإن كنت معك فى النهاية أن الانحراف يبقى انحرافاً مهما كان حجمه .. ويبقى سببه الرئيسى يستحق الانتباه والتأمل .. وهو البقاء فى مواقع مراكز القوة طويلا بلا حساب .. أو كأنه ـ كما قرات لك مرة فى «الاهرام» ـ لابد أن تقع مصيبة أو هزيمة حتى يكون التغيير ضرورة.

كانت المرة الأخيرة التى أحاور فيها محمد نسيم .. لكنها لم تكن المرة الأولى .. حدث مرة أن رأيته غاضبا .. بل ربما كانت المرة الوحيدة التى رأيته فيها غاضبا .. كان السبب الحملة التى شنتها جريدة «معاريف» الاسرائيلية على «رأفت الهجان» أو «رفعت الجمال» بعد أن تحولت قصة اختراقه لدائرة صنع القرار فى إسرائيل لمدة ٢٥ سنة مسلسلا تليفزيونيا جن به الناس .. وحرك فيهم مشاعر الزهو والكبرياء الوطنية التى تصور «هواة» التطبيع مع العدو أنها أصيبت بالشلل.

إدعت «معاريف» أن رأفت الهجان الذى جاء إلى اسرائيل فى عام ١٩٥٥ باسم جاك بيتون قد قبض عليه فى ليلة ممطرة وهو فى الفراش مع إمرأة صغيرة فى بيته فى شمال تل أبيب .. وتحت وطاة التعذيب اعترف بكل شئ .. قال إنه ولد عام ١٩٢٧ فى القاهرة .. أسرته مسلمة .. متدينة .. وعندما أنهى دراسته الثانوية التحق بمدرسة البوليس لكنه ثم يكمل دراسته فيها .. ثم عمل فى مهن مختلفة ..

منها «جرسون» فى مقهى يملكه والده .. وهناك جندته المخابرات السرية لنقل أخبار اليهود الذين يترددون على المقهى .. وأخيراً قرروا ارساله إلى اسرائيل بهوية مزورة وشخصية مختلفة .. وسافر إلى روما .. ومن هناك إلى حيفا .. ومنها إلى تل ابيب .. لكن .. بعد القبض عليه تعاون مع الموساد .. وبدأ استغلاله عميلاً مزدوجا بين مصر واسرائيل .. وكان يحصل على المال من الطرفين وينفقه على اللهو والنساء.

لم يحتمل محمد نسيم هذه الرواية التى روجتها الصحيفة العبرية الشهيرة .. لم ينم يوم قرأها .. فقد شعر أن كرامته قد جرحت .. وكان رده الذى نشرته على لسانه وقتها. أنه لو كانت هذه الرواية حقيقية لكشفت عنها اسرائيل فى الوقت المناسب .. أو على الأقل كانت قد كشفتها بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ .. والمؤكد أن اسرائيل لم تعرف بقصة ذلك البطل المصرى رفيع المستوى إلا بعد أن اذاعتها المخابرات المصرية بنفسها .. ولو كان الهجان عميلا مزدوجاً فلماذا ظل فى إسرائيل ؟.. لما ذا لم ينتقل للاقامة فى مصر أو فى أى دولة عربية ؟.. كيف يكون عميلا للموساد ويظل فى إسرائيل ؟.. إنها أسئلة تحدى محمد نسيم المخابرات الاسرائيلية أن تجيب عليها .. ولم تقبل المخابرات الإسرائيلية التحدى المنشور علنا.

واستطرد محمد نسيم: ثم أنها ليست عادة الموساد .. هذا الانتظار الطويل قبل الكشف عن العملاء المزدوجين .. والدليل على ذلك قصة الجاسوس المصرى «كيفوركى يعقوبيان» الذى كشفوه فى الستينات وحولوه إلى مهرجان دعائى صاخب ونشروا عنه كتابا بعنوان «الذئب الوحيد» .. كان كيفوركى مصريا أرمينيا تم تجهيزه لمدة سنة ونصف السنة وعرف باسم زكى سليم كيتشوك .. وقد أحب فتاة إسرائيلية شقيقها ضابط فى الأمن .. وكانت هذه هى نقطة ضعفه .. وبعد عام ضيقوا عليه الخناق .. وبعد التحقيقات سارعوا بنشر التحقيقات .. وأغروه بالعيش فى إسرائيل مقابل أن يكون جاسوسا لهم.

والمقصود .. أن إسرائيل لا تتاخر فى كشف العملاء المزدوجين .. أو العملاء الذين يسقطون فى شباكها .. وقد كان الهجان فى اسرائيل قبل كشف قضية كيفوركى بسنوات طوال فلماذا لم تعلن قصته وتكشفه .. كذلك فإن إسرائيل تفضل كشف العملاء عن استعمالهم على الوجهين.. إن إسرائيل لا تحتمل الهزيمة .. وقد كانت قضية الهجان هزيمة وفضيحة .. وكارثة زادت بعد أن كشفت مصر القضية .. ولو كانوا قد جندوا الهجان وحققوا معه فلماذا لم يذيعوا على العالم ذلك .. ليحسموا الأمر؟..

كان محمد نسيم يتكلم بحماس وهو يدافع عن رأفت الهجان وكانه يدافع عن ابنه أو يدافع عن نفسه .. إن علاقة ما غريبة تربط بين الجاسوس وضابط تدريبه وتشغيله .. لقد قابل الهجان أول مرة فى روما لإعادة تقومية بعد أن تضاربت الأقوال حوله .. وكان قراره أن يستمر .. ولكن بعد التدريب على جهاز إرسال لاسلكي .. وعندما رفض الهجان هدده محمد نسيم بأنه سيقتله ويدفنه فى الفيلا التى التقيا فيها .. وكان مقرراً أن يستمر الهجان فى إسرائيل خمس سنوات من ٢٠ سنه .. وهو ما جعل إسرائيل تكف عن ترديد عبارتها الشهيرة : «أن لديها أقول جهاز مخابرات فى العالم» .. فقد تحولت العبارة القوية التى تنم عن الثقة والشراسة إلى نكتة ساخرة.

وقابلت محمد نسيم بعد ذلك مصادفة فى الأقصر .. كان قد ترك المخابرات وتحول إلى السياحة .. كان القمر ينقى بخيوطة الفضية على سطح النيل الذى ضاق قليلا ليمنح الفرصة لجبال البر الغربى ورماله وحقوله الخضراء. للكشف عن مشهد ساحر يندر وجوده فى مكان آخر .. وخطر ببالى أن أساله سؤالا لا اتصور انه توقعه.. هل فكرت يوماً فى أن تكتب شعرا ؟ .. هل فى تاريخ المخابرات فى العالم من كتب رسالة غرامية أو قصيدة عاطفية ؟ .. وابتسم .. وأخذ صوته نبرته المميزة وقال: لا اعتقد .. إننا نتدرب على لمس اصغر الأشياء حتى الذرات .. ولو حلقنا فى

فضاء الخيال والشعر تحولنا إلى وهم ودخان وعصافير يسهل اصطيادها . ولكن ذات يوم بعد أن تركت الخدمة كنت مسافراً .. وتوقفت عند كشك بيع الصحف والكتب فى المطار .. ووجدتنى أمد يدى واشترى ديوان شعر لنزار قبانى لفت نظرى عنوانه .. «اعلنت عليك الحرب» .. لقد عشت طوال عمرى وأنا أعرف عبارة إعلان الحرب .. فها هى فى الدنيا إعلان آخر مختلف .. إعلان الحب .. ولم أصدق أن فى الدنيا كلمات عذبة بهذه الروعة .. وشعرت فى تلك اللحظة أن كثيراً من متع الحياة لم نتذوقها .. الشعر .. المتاحف .. الرواية .. السينما .. الموسيقى .. الطرب .. بل إننا لم نمارس متعة الاسترخاء والتسكع والجلوس فى الشمس على المقاهى.

لم يكن فى العمر وقت ليعيد محمد نسيم صياغة حياته من جديد .. النسيج لم يعد يقبل خيوطا جديدة .. والشخصية لم تعد قادرة على تهجى حروف إبجدية جديدة .. ولكن .. تبقى للشخصية سحرها الخاص .. وجراتها المميزة .. وهى صفات قد لا تتوافر فى بعض المثقفين .. وبعض الذين نصفهم بالمبدعين .. لقد أجمع كل من عرفوا محمد نسيم على أنه «رجل» بمعنى الكلمة .. يتحمل المسئولية .. ولا يتخلى عن مساعديه حتى لو كلفه الموقف حياته .. يمكن أن يموت فى سبلهم .. فى سبيل ألا يصفه أحد بالنذالة ولو لم يسمع الوصف بأذنيه .. ثم أنه كان سترا وغطاء على كل ما عرفه بحكم عمله .. فقد عاش محترفا للصمت .. ومات مكفنا به .. ثم إنه لا يعرف المستحيل .. لو قبل مهمة فلابد أن تنفذ .. وقد كان ذلك يشعره بالاكتفاء والامتلاء.

لقد ظل أكثر الناس قربا له والتصاقا به لا يعرفون دوره فى تدريب المعارضين لشاه ايران فى ضاحية انشاص فى سنوات حكم جمال عبد الناصر تنفيذاً لطلب من الإمام الخومينى .. لم يعرف أحد ذلك لمدة تزيد على ٣٠ سنة حتى كشفه الوزير

فى رئاسة الجمهورية فتحى الديب فى كتابه المفاجأة «عبد الناصر وثورة إيران» .. وقد قال لى فتحى الديب: إنك كلما حفرت فى التربة الوطنية وجدت آثراً له قيمة يشير لمحمد نسيم .. فما نعرفه عنه أقل بكثير مما فعل .. لكنه قدره وقدر كل الذين احترفوا الخفاء والظل والكتمان والسرية .. نعرف أعمالهم ولا نعرفهم نشعر بهم ونطمئن لوجودهم ولا نراهم.

لكن .. أهم عمل نعرف أن محمد نسيم قام به هو تدمير الحفار «كيتينج». أو الجزيرة العائمة . الذى استاجرته إسرائيل للتنقيب عن البترول فى خليج السويس .. وقد عرفت من محمد نسيم أن جمال عبد الناصر لجأ لبعض حكام العالم من أصدقائه. وعلى رأسهم الرئيس اليوجوسلافى جوزيف بروس تيتو. للضغط على اسرائيل للتراجع عن فكرة الحفار.. ولكن إسرائيل أصرت .. وركبها الغرور والعناد .. بل إنها كونت شركة متعددة الجنسيات من كنديين وبريطانيين وأمريكيين لتضاعف من صعوبة الأزمة .. وكانت المشكلة أن مصر لم تكن مستعدة لضرب الحفار بالطيران عند دخوله خليج السويس فى وقت كانت فيه تعيد تنظيم قواتها المسلحة بعد ما جرى فى هزيمة يونيو عام ١٩٦٧ .. فكان لابد من تدميره بعيداً عن المنطقة الملتهبة والجاهزة للاشتعال.

وتلقى محمد نسيم أمراً مباشراً من جمال عبد الناصر .. لقد استقبله فى شرفة ملحقة بغرفة نومه .. وكان بالروب والبيجاما وسأله الأسئلة التقليدية المعتادة عن صحته وأولاده .. ولم يقل محمد نسيم إن ولديه هشام وفؤاد مصابان بالحصبة .. وانما أجاب الاجابة التقليدية .. «الحمد لله يافندم» .. وبعد أن انتهى من الشاى .. ووصل إلى الباب .. قال له جمال عبد الناصر كلمة واحدة .. «الحفار يانسيم» .. فرد نسيم : «حاضر يافندم» .. وعندما نفذت العملية .. وتوالت التفجيرات أرسل برقية من أبيدجان بالشفرة تقول: «مبروك الحاج» .. عرفت قيادته فى القاهرة أن

عملية الحفار أو الحاج قد تمت بنجاح .. ورد عليه أمين هويدى الذى كان قد أصبح مسئولاً عن المخابرات العامة بعد غروب شمس صلاح نصر ـ ببرقية أخرى تقول: «الأولاد بخير وبيسلموا عليك» .. ولم تكن البرقية هذه المرة بالشفرة .. كانت برقية حقيقية .. فقد برأ ولداه من المرض الذى تركهما عليه.

وقد سألته ذات مرة: ألا تشعر بالخوف وأنت معرض للكشف والخطر فى أى لحظة .. واعترف بأننى احترمت اجاباته .. احترمت ما بها من إنسانية .. قال: كل إنسان يخاف .. ولا تصدقنى لو قلت لك غيرذلك .. الخوف شعور انسانى طبيعى.. ما نرفضه هو الجبن .. فالجبن يجعلك لا تجيد التصرف فى المواقف الخطيرة وأنت على الحافة .. أما الخوف فيدفعك للحرص والحذر.

والأمنية الوحيدة التى لم يحققها محمد نسيم هى أن يتقاعد ويزرع قطعة الأرض التى اشتراها فى الريف .. لقد ظل مثل جواد أصيل .. وأصر على أن يموت واقفا .. أصر على أن يختار اختيارا حاسما .. الحياة بالكامل .. أو الرحيل فى عربة الموت الخاطفة .. الباردة .. المؤلمة.

١٩ نجم من عالم السرية

فى حجرة للعناية المركزية تسللت ـ على خيوط ناعمة من الحرير ـ مخلوقة شفافة غير مرئية تحترف الحلم اسمها «الغيبوبة» .. وأحيانا يسمونها «كوما» .. تسللت لتسرق الوعى والانتباه من حياة الألماسة الوطنية السمراء محمد نسيم .. وشهرته «نديم قلب الأسد».

لقد فتحت الذبحة صدره وغرزت أظافرها فى قلبه .. ثم راحت تسبح فى دمه بحرية لم تقدر على إيقافها أقراص الأطباء الحمراء والصفراء .. فطرقت أبواب المخ.. وتمهلت بين خلاياه ثم عادت لتعربد فى القلب .. ثم جرت تحرض الهواء على مقاطعة الرئتين بعد أن سدتا بسواد أطنان من قطران السجائر الذى تلقفتهما على مدى أكثر من أربعين سنه فى استسلام .. وأخيراً أقنعت الجسم بأن يتوه عما حوله رغم الأسلاك والخراطيم الموصلة بينه وبين أجهزة شديدة الدقة والحساسية.. ثم فى النهاية أقنعت الروح بالصعود إلى بارئها.

تلقى محمد نسيم إنذارا صحيا شديد اللهجة على يد ذبحة سابقة فى مايو ١٩٩٩ وهو فى دمشق .. لكنه مثل كل الذين حملوا أعباء هذا الوطن على أكتافهم لم

يستجب للإنذار .. ومثل كل الذين احترفوا التعامل مع الموت والخطر والموساد استهان بنقطة دهون صغيرة تسد شرايين قلبه .. وراح يواجه ما حوله بعناد اشتهر عنه .. على أن نقطة الدهون التى فى حجم رأس الدبوس ـ والتى تجيد خطط الهجوم على المراكز الحساسة للحياة ـ كانت أخطر عليه من فرق القتل والقنص والمطاردة فى المخابرات الإسرائيلية التى كانت تريده حيا أو ميتاً لعقود طويلة .. ودخل الرجل ـ الذى دمر الحفار ورسم خطة تفجير المدمرة إيلات وساهم فى تدريب رأفت الهجان وحقق فى قضية انحراف المخابرات بعد هزيمة يونيو ـ المستشفى على قدميه .. لكن سرعان ما انزلقت حالته الصحية على سطح أملس كالجليد .. ونافس تضرع زوجته وولديه وأقاربه وأصدقائه إلى السماء محاليل وخراطيم الأطباء .. ولكن المعجزة التى كان ينتظرها الأطباء لم تحدث .. وخرج السر الإلهى فى فجر الأربعاء الماضى .

إن مهنتى هى الانفعال والكتابة وقد كنت أتصور دائما أنها أسرع الطرق لرفع الضغط وتعطيل احتراق السكر وزرع فى الدم امرأة قادرة على إيقاف القلب فى أى وقت اسمها الذبحة الصدرية .. ولان فاقد الشئ يبحث عنه، فقد كانت أحسد ضابط المخابرات دائما على هدوء الأعصاب الذى يولدون به .. وكنت أتصور أنهم لا يصابون بأزمات القلب .. العاطفية والصحية .. وكنت أتصور أنهم أشد برودة من الموت نفسه .. لم أكن أتصور أنهم بشر مثلنا .. ينفعلون .. يخافون .. يمرضون .. يدخلون غرفة الانعاش .. ويحتاجون للدعاء .. لكننى اكتشفت أنهم من لحم ودم .. وفرح وحزن .. أما قوتهم الخرافية .. السوبرمائية .. فمصدرها إيمانهم بدورهم فى حماية الوطن .. ومن يضع الوطن فى عينيه يضعه الله فى قلبه .. ولابد أن يكون الإيمان حقيقياً .. فالدور الذى يلعبونه هو دور خفى .. مستتر .. لا تلقى عليه الأضواء .. وليس من حق أصحابه أن يكونوا نجوما .. فالبطولة جماعية .. والوسام فى النهاية على صدر الوطن.

وقد شاءت الأقدار أن يعرف الناس ما فعل محمد نسيم .. أو بدقة أكثر يعرفون جزءاً مما فعل .. قطرة فى بحر مما فعل .. ومن ثم أصبح محمد نسيم نجماً رغم أنفه .. وبطلا لم يكن يتصور أننا سنعرف بطولته .. ولكن .. الضوء نصيب .. والشهرة قضاء مكتوب .. لا تقدر على منعه كل قوانين السرية.

ولد محمد نسيم فى القاهرة القديمة .. فى حى شعبى هو «المغربلين» .. الشهير بالدرب الأحمر .. كان البيت الذى تربى فيه يقع خلف مسجد «المردانى» .. أشهر المعالم البارزة فى الحى .. لم يكن هذا المسجد للصلاة فقط .. وإنما كان للمذاكرة ومراجعة الدروس .. أيضا قبلة الصلاة أمامه وكتب المدرسة بين يديه .. والله الذى يستمد منه العون والحماية فى صدره .. يحمله معه فى كل مكان .. حتى ولو كان سيدخل متسللا فيما بعد إلى أرض العدو فى اسرائيل .. أو حتى سيحمل حقائب متفجرات بنفسه من القاهرة إلى داكار عبر باريس لتفجير الحفار.

قبل أن يكمل ثلاث سنوات لم يجد أمه إلى جواره .. خطفها الموت .. ذلك الكيان البارد الغامض العاجز عن المواجهة .. لقد تسلل ليلا وأخذ أمه وترك رسالة عليها شريط أسود قال له فيها: إنه مضطر لذلك .. ويبدو أن المواجهة المبكرة للموت منحته حصانة ومناعة وشجاعة فى التعامل معه فيما بعد .. لقد قابل الموت وهو طفل صغير .. فلماذا يخشاه وقد أصبح شابا ورجلاً وضابطا فى المخابرات المصرية ؟ ثم إنه تعلم الملاكمة وهو على عتبة الشباب .. فهل كل ينتظر الموت ليلاكمه .. أم كانت الرياضة هى فرصته لإثبات وجوده بعد أن شعر بعبء الدراسة والمذاكرة والتحصيل؟

فى الخامسة عشرة من عمره انتقلت أسرته إلى حى المنيرة .. القريب من النادى الأهلى .. فكانت ملاعب الهوكى وحلبات الملاكمة مفتوحة أمامه .. وفيما بعد أصبح بطل الكلية الحربية والقوات المسلحة فى الملاكمة .. وفيما بعد فى مباراة

للهوكى بين مصر وباكستان أصيب فى أنفه فكسرت «الأرنبة».. وتركت الاصابة علامة مميزة فى وجهه .. وفى مباراة ملاكمة فى الكلية الحربية أصر على أن يكمل المباراة رغم اصابته بشرخ فى يده اليمنى .. وكافأة وزير الحربية محمد حيدر باشا بمنحه المجانية طوال سنوات الدراسة فى الكلية وكان لا يزال فى السنة الأولى .. وأغلب الظن أن يوسف السباعى استوحى هذا المشهد وهو يكتب قصة فيلم «رد قلبى».

لكنه .. سرعان ما قرر اعتزال الملاكمة عندما وجد نفسه يتلقى لكمة قوية من منافسه على بطولة للجيش فى عام ١٩٥١ صلاح أمان أفقدته الوعى والذاكرة .. ورغم أنه فاز فى المباراة بالضربة القاضية، إلا أنه لم يشأ أن يعيش تلك الحالة مرتين .. على أن الرياضة منحته فرصة الزواج من إحدى بطلات مصر فى الجمباز .. وهى سيدة هادئة .. متزنة .. واقعية .. متابعة لما يجرى حولها .. ترك لها مسئولية حماية ظهره وتربية ولديه هشام وفؤاد- وهما مهندسان لكنهما يعملان فى السياحة فى نويبع- وقد وجدتها على باب حجرة الانعاش تقرأ القرآن وتستقبل زواره من الفجر إلى ما بعد العشاء.

لقد التحق محمد نسيم بالكلية الحربية فى عام ١٩٤٩ وتخرج فيها بعد عامين ليلتحق بسلاح المدرعات ويشارك وهو ضابط فيه فى حرب «السويس» عام ١٩٥٦ .. لكن .. ما إن انتهت الحرب حتى اختير للانضمام إلى المخابرات العامة وكانت لا تزال وليدة .. عمرها لا يصل إلى عامين .. فقد بدأ التفكير فيها فى صيف عام ١٩٥٤ بعد أن كشفت قضية «لافون» .. قضية الشبان والبنات اليهود الذين أمرتهم الموساد بتفجير مراكز المصالح البريطانية والأمريكية لتخريب العلاقات بين القاهرة من ناحية .. ولندن وواشنطن من ناحية أخرى.

كان عمره فى ذلك الوقت لا يزيد عام ٢١ عاما .. وقد اختير للعمل فى «الخدمة

السرية» .. وهو الجهاز المدبر والمخطط لعمليات اختراق العدو .. وزرع الجواسيس في أفراده .. وجمع الأسرار عنه .. والحصول عليها من بين أنيابه .. أما الجهاز الأخر «الأمن القومى» .. فمهمته مكافحة الجواسيس الأجانب الذين يتسللون إلى الداخل .. أو المصريين الذين يفقدون مناعتهم الوطنية ويسقطون فى «بئر الخيانة» .. عليه القبض عليهم وتقديمهم لمحكمة أمن الدولة العليا ليكون مصيرهم فى الغالب حبل المشنقة.

لقد كان محمد نسيم من الجيل الأول فى المخابرات العامة .. وهو جيل كان عليه أن يواجه ويتعلم .. يخطط ويدرس .. يقاتل بالعقل ولكن بدون إمكانيات .. كان التحدى أهم أجهزته الدقيقة .. وكان الحماس هو القوة الخارقة الوحيدة المتاحة له .. انها سنوات التألق الوطنى التى كان الكل فى بوتقة واحدة .. ولم يكن فيروس الأنانية الفردية قد تمكن منا .. ولم يكن شعار «أنا ومن بعدى الطوفان» قد فرض نفسه علينا .. كانت هناك قضية وطنية .. وكانت الحدود واضحة بين الخطأ والصواب .. بين الكفر والإيمان .. بين الموهبة وادعاء الموهبة.

لم أعرف محمد نسيم إلا فى بداية الثمانينات .. كان قد ترك المخابرات وأصبح مسئولا عن هيئة تنشيط السياحة .. قابلته مصادفة فى الجزائر .. كان قادما لتنفيذ أسبوع سياحى فى وقت كانت فيه العلاقات بين البلدين مقطوعة .. ولكن كانت هناك رغبات فى إعادتها .. فكانت السياحة هى الخطوة التى تسبق السياسة .. ولاحظت قدرته المذهلة على تنفيذ العمل .. إنه لا يترك التفاصيل الصغيرة تمر حتى لا تحدث الكوارث الكبيرة ويعرف كيف يتدخل فى الوقت المناسب قبل أن يصبح عود الكبريت شعلة حريق .. وقد كانت فرصة لنا .. يوسف شاهين وعزت العايلى وفايزة سعد أن نسأله على العشاء كل مساء فى مطعم فندق «الأوراس» عن كل ما سمعناه عن المخابرات من أساطير وخرافات.

وعرفت منه أن كثيراً من العمليات التى قام بها كانت بتكليف مباشر من جمال عبد الناصر شخصياً .. كان يستدعيه ليشرب معه فنجانا من الشاى .. ويسأله عن صحته وبيته وولديه .. ولم يكن محمد نسيم يجيب إلا بإجابه واحدة .. ثابتة .. «الحمد لله يافندم» .. وعند الباب .. كان جمال عبد الناصر يحدد المهمة .. فيرد محمد نسيم بعبارة واحدة .. ثابتة .. «حاضر يافندم» .. لم يكن يسأل عن التفاصيل.. ولم يكن يسأل عن الامكانيات .. فقد تلقى الأمر .. وعليه التنفيذ .. «حاضر يافندم».

كانت أول «حاضر» قالها لجمال عبد الناصر مباشرة فى عام ١٩٦١ .. بعد الانفصال بين سوريا ومصر .. كان عليه السفر إلى بيروت ليدير منطقة «المشرق العربى» من هناك وليواجه الآثار المترتبة على الانفصال وجمع ما تبعثر منها .. وبيروت كانت فى ذلك الوقت محطة «ترانزيت» لمعظم أجهزة المخابرات .. وكان فندق «سان جورج» المكان المفضل لجواسيس الدنيا .. يحتسون القهوة السوداء ويدبرون المؤامرات السوداء ضد زعيم كانت شعبيته فى القمة .. والعداء له أيضا.

وكانت أولى العمليات التى وضعها فى بيروت هى عملية اختطاف عبد الحميد السراج من سجن «المزة» أخطر السجون السورية وأكثرها إحكاما بعد أن قبض عليه قادة الانفصال بتهمة الإيمان بجمال عبد الناصر والإعجاب به .. وقد تسلل محمد نسيم فى ملابس أحد حراس السجن ودخل زنزانة عبد الحميد السراج ونجح فى إخراجه حتى الأسوار ثم قفزا معا من ارتفاع كبير وسبحا ساعات طويلة حتى ساعات أخرى كان عبد الحميد السراج فى بيروت .. وبعد أيام كان فى القاهرة .. وقد عينه جمال عبد الناصر وزيراً للتأمينات الاجتماعية وكان مسئولاً عن الأمن فى سنوات الوحدة التى أعلنت فى فبراير ١٩٥٨.

كانت الحرب السرية شرسة فى بيروت .. خطف .. وقتل .. وشراء لذمة الصحف.. فحبر الكتابة كان يتلون هناك سياسياً حسب لون عملة «المصارى» ..

وكان لمصر صحافة .. وكان لخصومها صحافة .. لكن القتال لم يكن على الورق فقط .. كان فى الحوارى والأزقة المظلمة أيضاً .. وقد عرف محمد نسيم من مصادره أن هناك خطة لخطف ابنه الأكبر هشام وكان عمره لا يزيد على ٧ سنوات ويدرس فى المدرسة الألمانية .. فلم يتردد فى أن يعيد أسرته التى كانت تعيش معه فى بيروت إلى القاهرة.

وسرعان ما اكتشف محمد نسيم خطة أخرى لقتله بوضع شحنة ناسفة فى ماسورة عادم السيارة .. لقد تعود الحرص فى كل خطواته وتصرفاته .. كان يفحص أبواب بيته ومكتبه قبل أن يمسك بالمفتاح .. كان يتأمل ملامح الذين يقدمون له الطعام وينظر فى عيونهم طويلا يلتقط أى اضطراب أو توتر .. كان يفتش سيارته فى كل مرة يركبها قبل أن يديرها .. وقد أنقذه ذلك من الموت منفجراً محترقاً فى سيارته .. ولم يكن هذا النوع من الموت معروفاً فى مصر .. لكنه كان سيمفونية يومية فى لبنان .. فلبنان تعرف الموضة فى كل شئ .. الثياب .. المجوهرات .. الأفكار السياسية .. وطرق وأساليب الموت.

ولابد أن تصدق محمد نسيم وهو يروى لك كل هذه الروايات التى لا تراها إلا فى الأفلام .. فهو رجل نذر حياته للخطر .. والخطر علم مثل الطب والصيدلة والصحافة والهندسة يمكن دراسته والتفوق فيه .. ولكنه مثل أى علم أخر يجب أن يكون الإنسان موهوبا بالطبيعة فى التعامل معه .. مستعداً لترويضه واستئناسه والسيطرة عليه .. لهذا لا يصلح الشعراء والأدباء ضباط مخابرات .. فاعصابهم خيوط من زجاج يسهل كسرها .. وانفعالاتهم مثل عملة بلا غطاء ذهبى يسهل وقوعها .. وألسنتهم تسبق عقولهم .. يتكلمون ثم يفكرون .. لذلك فالندم دفيف مثل الظل لا يفارهم.

ولو كنت قد رأيت محمد نسيم لأصبت بصدمة فورية .. فهو لا يبدو مثل رجال المخابرات الذين تراهم فى أفلام جيمس بوند .. فلا هو يغمز بعينه لكل من يراه .. ولا هو يتكلم فى طبق الشوربة ليتصل بالقيادة .. إنه عملاق أسمر نحيف .. يبدو مثلك ومثلى .. هادئا .. قادراً على التركيز والسيطرة على ما فى عقله .. ويمكن أن تتصوره طياراً أو مدرس تاريخ فى مدرسة ثانوية .. فالمخابرات ليست لعبة من ألعاب الكاوبوى .. أنها لعبة ذكاء وأعصاب .. لذلك فآخر تعريف للجواسيس ورجال المخابرات هم أنهم أصحاب قداسة فى بطريركية العقل .. انتقلت من السياسة إلى السلع .. ومن الحصول على المعلومات إلى تحليلها.

وفى بيروت كذلك .. كاد محمد نسيم يتعرض لعملية اختطاف من بيروت ليصبح رهينة فى يد خصوم جمال عبد الناصر ويجبروه على أن يهاجمه فى إحدى الاذاعات المعادية لمصر فى ذلك الوقت .. وكان المكلف بالعملية شابا مصرياً يعيش على العداء لبلاده .. وقرر محمد نسيم أن يأكله على الافطار قبل أن يتناوله هو على العشاء .. فكان أن اختطفه ووضعه فى طائرة حملته إلى القاهرة.

لكن .. هذه كانت الصفحة الأولى فى كراسة محمد نسيم .. الكلمة الأولى فى الجملة الوطنية التى صاغتها حياته .. وأتصور أن باقى الأوراق والكلمات والحروف تستحق منا الإنتظار.

٢٠ كشف المستور في قضية السيدة «نون»

لا يتفلسف .. ولا يتصرف بغرور .. ولا يعقد الأمور .. لأنه يعرف أن عندنا من العقد التاريخية والسياسية المزمنة ما يكفينا ليوم القيامة .. فلا مبرر أن يضيف بمذكراته عقدة جديدة .. بل أستطيع أن أقول أنه فى مذكراته - التى تأخرت طويلاً ونشرت فى صمت بعنوان «شهادتى للأجيال» - حل الكثير من العقد والألغاز التى لا تزال تسبب لنا الصداع والروماتيزم والهيستريا الوطنية.

هو المهندس حلمى السعيد .. واحد من ضباط يوليو .. ورجال جمال عبد الناصر الذين لم نسمعهم كثيراً.

وهو شاهد صامت على تاريخ هذه الفترة التى راح كل من هب ودب يكتب عنها إما على طريقة عنتر بن شداد أو على طريقة چينكيزخان .. فنحن إما فى النعيم أو الجحيم .. لكن أبداً لم نكن على الأرض.

ورغم أن حلمى السعيد من الضباط الأحرار وحارب فى فلسطين وشارك فى ثورة يوليو إلا أن المناصب التى تولاها كانت فى الغالب بعيدة عن صراعات القوى ومؤامرات الكواليس .. فهو ضابط مهندس .. عمل مستشاراً لجمال عبد الناصر فى

الاقتصاد والتخطيط. وكان معاوناً لعبد الحكيم عامر فى اللجنة العليا للسد العالى .. وأسس الجهاز المركزى للتنظيم والإدارة .. ورأس مؤسسة مصر التى كانت تضم ٦٠ شركة .. وقبل أن يختتم حياته العملية اختاره أنور السادات وزيراً للكهرباء والسد العالى .. وعندما تجرأ وقدم استقالته من الوزارة وجد نفسه فى السجن .. متهماً بقلب نظام الحكم فيما عرف بقضية ١٥ مايو ١٩٧١ هو ومعظم رموز العهد الناصرى وقياداته.

وقد كان من الممكن أن يختفى حلمى السعيد فى صمت كما عاش فى صمت .. ولكن شاءت الظروف أن تأخذه من الدار إلى النار .. ليس فقط فى قضية ١٥ مايو.. وإنما قبلها فى قضية أخطر وأصعب ولاتزال تثير شهية الناس فى الحديث عنها وسرد تفاصيلها .. قضية «انحراف جهاز المخابرات العامة» التى كان على رأسها الأب الروحى للجهاز .. صلاح نصر .. فقد طلب منه جمال عبد الناصر أن يتولى التحقيق فى هذه القضية التى هناك من يعتقد أنها كانت كبش فداء ذبحه النظام فى معبده للخروج من نفق هزيمة يونيو المظلم والمؤلم المزروع بالعقارب والخفافيش .. والحقيقة أن اختيار حلمى السعيد لهذه المهمة يثير علامات من القلق والاستفهام .. فما الذى يعرفه. وهو الرجل الفنى والخبير فى الهندسة والكهرباء والسد العالى- فى مثل هذه القضية الشائكة التى يختلط فيها الحق بالباطل .. وهو ما أخلاقى بما هو غير أخلاقى..!!

وهو نفسه يبدو مفزوعاً من هذه المهمة .. ويقول فى مذكراته (التى نشرتها دار المستقبل العربى) : «إن المخابرات فى كل زمان ومكان هى أسوأ مهنة فى العالم ومهمتها جمع المعلومات الدقيقة لتكون أمام القادة .. صناع القرار فى بلادهم .. وجمع المعلومات يعتمد على أية وسائل شريفة أو غير شريفة .. فليس فى عمل المخابرات مثاليات أو التزام بمبادئ وقيم وإنما الغاية أولاً وأخيراً هى الحصول على المعلومات بأية وسيلة .. بالرشوة .. بالنساء .. بالإدمان .. ومنطقها أنه أمام الحصول على المعلومات أمن الدولة تهون وترخص كل الوسائل المتاحة وغير المباحة» (ص ١٠١ من المذكرات) .. ولكنه لا ينكر فى الوقت نفسه أن ما تعرض له صلاح نصر

من تشهير وإساءة متعمدة فيه الكثير من التجنى .. فقد أدى هو وجهاز المخابرات العامة أدواراً أذهلت العالم وعلى رأسه العدو الإسرائيلى .. ولايزال فى ملفات هذا الجهاز الحساس ما يثبت أنه فى أوقات الشدة الوطنية كان سداداً.

ولا جدال أن حلمى السعيد فوجئ بتكليفه بهذه المهمة .. وحاول التملص ـ على ما يبدو ـ منها بدعوى أن صلاح نصر صديقه .. لكن عبد الناصر قال له: إنه ليس فى نيته أن يذيع نتائج التحقيق ولا حتى خبراً عنه .. وأنه اختاره بالتحديد لقدرته على الكتمان وحفظ الأسرار .. ولأن صلاح نصر صديقه فإن حلمى السعيد سيكون الأقدر على معرفة الحقيقة بحجمها الطبيعى دون مبالغات .. ولكن ما حدث هو أن النظام استخدم هذه القضية فى الدعاية السياسية فى مرحلة ما بعد الهزيمة ليقول للناس الذين فقدوا الكثير من الثقة فيه إنه يطهر نفسه بنفسه .. ويدارى عوراته .. ويكوى جراحه .. ورغم أن الهدف بدا نبيلاً وجريئاً فإن النظام قدم دون أن يقصد سلاحاً لطعنه .. وفتح ثغرة كبيرة لنقده .. وراح خصومه يستخدمون هذه القضية سنوات طويلة لنهش لحمه .. ولتصفية الحسابات القديمة معه.

ولعل شهادة الرجل الصامت .. البعيد عن الصراعات والمؤامرات .. الذى تولى التحقيق فيها .. تعيد لهذه القضية حجمها الطبيعى .. بعد حوالى ٣٢ سنة على تفجيرها .. فقد بدأ التحقيق فى الساعة الثامنة من يوم ٢٨ أغسطس ١٩٦٧ وأنهاه فى الساعة الحادية عشرة من مساء يوم ١٤ أكتوبر من العام نفسه .. وكان يشاركه فى هذه المهمة رجل المخابرات الشهير محمد نسيم .. الذى عرف فى مسلسل «رأفت الهجان» باسم «نديم قلب الأسد» .. وكان البطل الرئيسى فى عملية «الحفار» الإسرائيلى وقد فجره فى ميناء أبيدجان بساحل العاج .. وكان التحقيق يدور حول سوء استعمال النساء والأموال السرية .. وهو ما جعل من الضرورى استدعاء ٤٤ سيدة وفنانة و٩ أفراد من خارج الجهاز بخلاف ١٤ فرداً من قوة الجهاز .. وقد جرت التحقيقات فى المخابرات العامة .. فى مكان مستقل .. وكانت صورة منها ترسل إلى سامى شرف مدير مكتب عبد الناصر .. وأمين هويدى رئيس الجهاز بعد صلاح نصر (ص ١٠٥).

ولا يدخل حلمى السعيد فى تفاصيل التحقيقات ولا نعرف السبب .. هل هى طبيعته المحافظة ؟ .. أم احترامه لقانون السرية الذى منع الخوض فى هذه القضية .. وإن جاء المنع متأخراً بعد أن نشرت كل تفاصيلها وإسرارها وأبطالها فى الكتب والصحف وأصبحت مصدراً من مصادر النميمة والثرثرة فى النوادى والمقاهى .. لا يدخل الرجل فى التفاصيل .. ولكنه يكتفى بالقول أنه هو ومحمد نسيم رفعا تقريراً إلى عبد الناصر الذى حوله إلى النيابة العامة (التى كان يتولاها المستشار نور الدين) ومنها إلى المحكمة.

وفى التحقيقات والمحاكمات اتضح أن ثلاثة أفراد من الجهاز وثلاثة أفراد من خارجه متورطون فى علاقات نسائية .. وهو رقم يبدو متواضعاً بالقياس إلى حجم الضجة التى أخذتها هذه القضية .. وبالقياس إلى حجم الإنجاز الذى حققه الجهاز فى تلك الفترة الشرسة فى الصراع مع العدو الإسرائيلى .. ولكن يبقى الإنحراف إنحرافاً .. مهما يكن حجمه .. ويبقى سببه الرئيسى البقاء فى مواقع القوة طويلاً بلا حساب .. أو كأنه لابد أن تقع مصيبة أو هزيمة حتى يكون التغيير والعقاب.

وأغرب ما يقوله حلمى السعيد فى شهادته للأجيال: إن بعض النسوة كن يرفضن اللقاء بالرجال إلا إذا كانوا أجانب .. وهو ما دفع رجال صلاح نصر إلى «إستخدام عدد من المترجمين من أفراد الجهاز للقيام باصطحابهم إلى الشقق الآمنة الخاصة بالمخابرات والمجهزة بمعدات التصوير وكان الانحراف الخلقى أسهل مع الأجنبى الذى لا يتحدث اللغة العربية (راجع ص ١٠٥ من المذكرات).

أما أكثر القضايا إثارة فهى قضية السيدة «نون» التى خاضت الصحف فيها كثيراً دون أن تبين الحقيقة (ص ١٠٥) .. وقد كانت السيدة «نون» وشهرتها الفنية «باء» على علاقة بأحد قيادات الجهاز .. ورغم أنها تحدثت فيما بعد عما لاقته من ضغوط عليها من هذه القيادة فالحقيقة أنها كانت وقعت إقراراً عام ١٩٦٠ لتكون مندوبة للمخابرات .. وكان جميع زملائها فى الوسط الفنى يعلمون علاقتها بالمخابرات وبقياداته .. وفى عام ١٩٦٢ قدموها إلى قيادة سياسية (وعسكرية) بارزة فى إحدى الفيلات الآمنة .. فى حجرة معتمة ولما قامت الشخصية القيادية

بإشعادة سيجارة عرفته السيدة «نون» التى كانت تردد كثيراً أنها عرفته بسيجارة.. وفى عام ١٩٦٣ تزوجته بعقد زواج عرفى وشهد عليه اثنان من أشقائه .. وفى عام ١٩٦٥ قامت المخابرات بالسيطرة عليها بواسطة مترجم فى الجهاز حتى لا تتحدث عن علاقتها بهذه الشخصية السياسية البارزة وأخطرت المخابرات هذه القيادة بعمل هذا الكنترول عليها (ص ١٠٦) وفى التحقيقات ذكر ضابط كان برتبة نقيب أن القائد السياسى العسكرى كان يحب السيدة نون إلى حد أنه كان يقارن بينها وبين زوجته الأولى وإلى حد أنها خططت لتأمين مستقبلها بالإنجاب منه ... وعندما راح النقيب يبلغ القائد بخططها (على شرائط مسجلة) لم يتردد القائد بأن يبلغها بما سمع من النقيب الذى أصبح مصيره معروفاً .. القبض عليه ووضعه فى السجن، وإجباره على طلاق زوجته ليتزوجها شقيق القائد (ص ١٠٧) .. ونجحت السيدة نون فى أن تنجب طفلاً (فى الساعة ١٢ ظهراً يوم ٤ أبريل ١٩٦٧) من القائد السياسى وكانت حتى ذلك الوقت زوجته عرفياً (ص ١٠٨) .. ومن الغريب أن قيادات المخابرات العامة فى تلك الفترة كانت تشجع القائد السياسى على توطيد هذه العلاقة مع السيدة نون بدلاً من حمايته منها» (ص ١٠٨) .. إن هذه القضية التى شغلت الرأى العام كثيراً قد حسمت بهذه البساطة .. دون إنكار أو ادعاء من السيدة نون.

وفى التحقيقات أيضاً: أنه قامت علاقة بين أحد قادة الجهاز وشقيقه أحد القيادات السياسية .. وكذلك زوجة أحد كبار الموسيقيين التى كان يشك أنها على علاقة بجهات أجنبية وقد أكدت خادمة الموسيقى تردد قادة المخابرات والقائد السياسى على منزل الموسيقى الذى ضاق بها وتم تعيين هذه الخادمة بالمخابرات» (ص ١٠٨) .. وكانت المخابرات قد بدءت فى مارس ١٩٦٣ فى استخدام الجنس فى عملها وراحت تجند الراقصات فى الكباريهات (ص ١٠٩) :. ولكن الغريب أن بعض قادة الجهاز «عندما كانت تعجبهم سيدة من الفنانات يقوم بالسيطرة عليها وإجبارها على العمل مندوبة للمخابرات (ص ١٠٨).

ويقول حلمى السعيد: إن هذه القضية كشفت بعداً فى شخصية عبد الناصر وهو

شجاعته فى مواجهة كل انحراف وحرصه على أن يعرف الشعب كل الحقائق وأن ينفض عن نفسه كل رواسب الماضى ليبنى مستقبله ويحقق طموحاته بصفحة ثورية طاهرة .. و«أشهد كم كان يعنى عبد الناصر وهو يتصدى بكل حسم للإنحرافات والأخطاء منحازاً للضمير الوطنى مهما كلفه ذلك من عذاب فى معركة تصفية مراكز القوى الذى ظهرت والتى وقفت فى طريق التصحيح خوفاً من ضياع نفوذها».

وفى المذكرات يتعرض حلمى السعيد لموضوع شائك آخر هو وفاة المشير عبد الحكيم عامر .. هل انتحر أم قتل؟ .. ويقول (فى ص ١١٥) : إنه سأل صلاح نصر عن عملية السموم ولماذا استوردتها المخابرات العامة .. فأجاب: إنهم استوردوا نوعاً من السموم هو «اكونيت» يستخرج من نبات اسمه «خانق الذئب» .. وأضاف: ان الاستيراد كان لكبار القيادات فى حالة الهزيمة لأن السم يحدث قتلاً فورياً وبدون ألم .. واستطرد : إن عبد الناصر غضب يومها (وكان ذلك قبل هزيمة يونيو ١٩٦٧ ، وقال فى حدة: «مش أنا اللى انتحر».

لكن «المشير عامر أخذهواحدة منها ووجدوا مكان لصقها بين فخذيه وهى التى أدت لوفاته» ذلك كله «ورد فى استجوابى لصلاح نصر بتكليف من عبد الناصر للتحقيق فيما نسب لجهاز المخابرات من تجاوزات وجميع هذه الردود والتحقيقات مسجلة على شرائط وكلها سُلمت للنيابة العامة».

إن التاريخ لا يكتب مرة واحدة ولا فى زمن واحد .. ولا من زاوية واحدة .. التاريخ عملية مستمرة مثل مياه النهر .. تلقى مع استمرار الأمواج والمياه بالجثث الطافية .. وتزيل الشوائب والرواسب .. لتظهر الحقائق مهما يطل الزمن .. ولو كانت شهادة حلمى السعيد هى شهادة رجل يعرف قيمة العقل وليس طرفاً فى صراعات ومؤامرات وحسابات فإن ذلك لا يعنى أن كلمته - رغم موضوعيتها الظاهرة - ستكون الكلمة الأخيرة .. فمثل هذه الملفات لا تغلق بكلمة من هنا أو مذكرات من هناك .. فالمستور الذى تكشفه يجر فى أذياله الكثير .. والكثير وكأنه غوص فى رمال متحركة.

٢١ عبد الناصر والثورة الإيرانية

غادر «عميل» المخابرات المصرية مطار بيروت وهو يحمل فى جيب خفى فى ثيابه ١٥٠ دولار .. كان عليه أن يوصلها ـ حسب تعليمات جمال عبد الناصر ـ إلى الزعيم الروحى والسياسى آية الله خمينى فى المدينة الشيعية المقدسة «قم» .. ولكن .. فى مطار «طهران» كانت المخابرات الإيرانية الشرسة المعروفة باسم «سفاك» فى انتظاره .. وعرف الرجل ـ بعد دقائق معدودة من التعذيب ـ سر العبارة التى يرددها الإيرانيون: «لا تدع الله فى سرك حتى لا يسمعك السفاك».

كان الخمينى قد بعث برسائل لجميع حكام العالم العربى والإسلامى يطلب منهم مساعدة أسر الذين قتلوا فى الانقلاب المضاد الذى قامت به المخابرات المركزية «الأمريكية» لإعادة الشاه إلى عرش «الطاووس» والقضاء على حكومة الدكتور محمد مصدق الوطنية .. ومن بين كل من تسلموا الرسائل لم يستجب سوى جمال عبد الناصر .. فكلف عبد الحميد السراج مسئول المخابرات فى سوريا ـ وكانت دولة الوحدة بين مصر وسوريا لا تزال قائمة ـ بإرسال ذلك المبلغ من الدولارات ليوضع تحت تصرف لجنة الإعانات والمساعدات لسد حاجات الأرامل والأيتام .. فكان ما كان.

فى عام ١٩٨٢ كشف محمد حسنين هيكل هذه الرواية فى كتابه «مدافع آية الله» الذى روى فيه قصة الثورة الإيرانية .. وأشار لأول مرة إلى العلاقة الخفية بين عبد الناصر والثورة الخمينية .. فقد كان أول ما اعترف به الخمينى عند عودته إلى

طهران منتصراً من منفاه بقرية «نوفل لوشاتل» القريبة من باريس هو «أن عبد الناصر كان الزعيم الوحيد الذي ساندهم»، ولكن هيكل .. لم يفرط كثيراً في تفاصيل هذه العلاقة .. ولا في تفجير أسرارها .. وكان علينا أن ننتظر حوالى ١٨ سنة حتى نعرف الصورة كاملة .. من الرجل المسئول عنها .. فتحي الديب في كتابه «عبد الناصر وثورة إيران» الذي نشره أخيراً مركز الدرسات السياسة والاستراتيجية بمؤسسة «الأهرام» بعد أن ظل حبيساً في خزانة مؤلفه أكثر من ٨ سنوات .. وهو كتاب يعتمد على الوثائق النادرة التي تكشف لأول مرة .. ورغم ذلك لم يحظ الكتاب بالاهتمام اللائق به .. والسبب معروف .. أنه ليس من كتب «النميمة» و«البانجو» التي تفسد وتدمر ذاكرة الناس وتغلق أبوابها بالشمع الأحمر.

وفتحي الديب تخرج من الكلية الحربية عام ١٩٤٢ .. وكان ضابط «مظلات» .. وحصل على شهادة «أركان الحرب» في عام ١٩٥٢ .. عام قيام الثورة .. وعام تغيير النظام السياسي في مصر .. وفي العام التالي كان واحداً من الضباط الذين تولوا مسئولية بناء جهاز المخابرات العامة .. بتكليف مباشر ومكتوب من «جمال عبد الناصر» في ٣١ مارس ١٩٥٣ .. وظل عموداً من أعمدتها الأساسية حتى ١٩٦٠ .. فعين سفيراً لمصر في «سويسرا» دون أن ينسى دوره في دعم حركات التحرر في الجزائر وليبيا والسودان واليمن .. وإيران .. بل أن مهمته الأساسية في السفارة المصرية في «برن» كانت تحويل السفارة إلى مركز اتصال متقدم لثورة يوليو يكون منفتحاً على العالم الخارجي مستفيداً من الموقع الاستراتيجي المتوسط لسويسرا المحايدة في قلب أوروبا».

في ٢ فبراير ١٩٦٣ جاء للسفارة في «برن» محمد ناصر قاشقاي وقدم نفسه لفتحي الديب كرئيس لقبائل قاشقاي التي تقيم بالجبال الممتدة جنوب غرب إيران .. والتي تمكن الشاه من القضاء على انتفاضتهم العسكرية .. فكان أن تحولت الحرب بينهم وبين الجيش الإيراني (٧٠٠ ألف ضابط وجندي) إلى حرب عصابات .. وفي هذا اللقاء سمع فتحي الديب عن الإمام الخميني الذي يحظى بقدرة فائقة على تحريك الشارع والجامعات والتنظيمات الطلابية في الخارج والتي يزيد عدد أعضائها على ١٨ ألف طالب يدرسون في الجامعات الأوروبية والأمريكية ويشكلون ما يسمى بالجبهة الوطنية الإيرانية ومقرها الرئيسي في جنيف..

في ذلك الوقت كانت إيران الشاه على عداء سافر مع الحركة القومية العربية المتنامية والمزدهرة .. فقد اعترف الشاه في مارس ١٩٥٠ بإسرائيل وسمح لها بالتغلغل اقتصاديا في بلاده .. وفي الوقت نفسه لم يتردد الشاه في جر بلاده لسياسة الأحلاف الغربية .. ولعب دور الشرطي في الخليج العربي.

كانت مطالب قاشقاى من مصر المال والسلاح وتدريب رجاله على حرب العصابات في القاهرة .. وكانت المبالغ المطلوبة بالملايين .. وكان رأى عبد الناصر أنه يرفض أسلوب شراء القبائل .. كما أنه كان يرى أن أى حركة نضالية عليها أن تعتمد على مواردها المحلية وإلا تحولت الثورة إلى عملية ارتزاق.

وفي ١٢ إبريل ١٩٦٣ جاء إلى السفارة المصرية في «برن» على شريفيان رضوى مندوباً عن محمود طلقانى رئيس حركة الحرية الإيرانية المسجون في ذلك الوقت في سجون الشاه ومفوضاً عنه بالإتصال بالمصريين .. وكانت مطالب هذه الحركة توفير الحماية لأسر الشهداء والمسجونيين السياسيين .. وتأهيل بعض الشباب الإيرانى وإعدادهم لتولى زمام الحكم في إيران .. وتطوير الإذاعة الموجهة إلى الشعب الإيرانى من القاهرة .. وتركيز الصحافة المصرية وإذاعة «صوت العرب» - التى كان وراء تأسيسها مباشرة فتحى الديب شخصياً - على القضية الإيرانية لتصبح قضية جماهيرية.

وفي ١٦ أغسطس ١٩٦٣ تابعت المخابرات المصرية المؤتمر الثانى للجبهة الوطنية الإيرانية الذى عقد في مدينة «ماينز» بألمانيا وكان الرئيس الشرفى لها الدكتور محمد مصدق الذى كان مسجوناً في إيران وقد تم تهريب خطاب منه عن طريق أحد الحرس وإرساله بالبريد من روما وقد ألقى الخطاب على أعضاء المؤتمر وكان سبباً مباشراً لرفع معنوياتهم.

وفي أوائل سبتمبر من نفس العام وصلت إلى «برن» شخصية إيرانية مهمة .. هي إبراهيم يازدى أحد قادة التجمع الإيرانى في الولايات المتحدة والمفوض من قيادة حركة الحرية الإيرانية في الداخل .. وقد أصبح فيما بعد أول وزير خارجية للثورة بعد نجاحها في عام ١٩٧٧ - وقد التقى بفتحى الديب ليناقش التعاون المرتقب معه في إطار القرار المتوقع من جمال عبد الناصر والواضح أنه كان متأنياً كثيراً في اتخاذه .. بل إنه لم يتخذه إلا بعد أن جاء إبراهيم يازدى بنفسه إلى القاهرة - وكان معه زميله

على شريفيان ـ وقدم تقريراً تفصيلياً رفعه فتحى الديب إلى عبد الناصر «يتضمن الصورة الواقعية لحقيقة إمكاناتهم المتاحة فى داخل وخارج إيران .. وعرض فيه فكرهم وخطتهم لتهيئة الشعب الإيرانى ليباشر نضاله الثورى للإطاحة بالشاه».

وكان رأى عبد الناصر بعد أن قرأ التقرير هو التريث وضرورة البدء بتوحيد جهود القوى الوطنية الإيرانية .. ولكنه أضاف: «أنا موافق من حيث المبدأ على دعم الثورة الإيرانية» .. وكلف فتحى الديب وكمال الدين رفعت بالتعرف على موقف الإيرانيين ـ بعد نجاح الثورة ـ من موضوع «نظام الحكم والأسس الاقتصادية والاجتماعية لنظامهم المزمع إقامته» .. وعلاقتهم بالنظام الدولى .. وموقفهم من المصالح الأجنبية الموجودة فى إيران .. ومن فكرة القومية العربية .. والمشكلة الكردية .. وإسرائيل .. ومشاكل الحدود بين إيران وجيرانها فى الخليج .. إن دعم عبد الناصر لم يكن اندفاعاً متهوراً ... وإنما كان مشروطاً بمصلحة المنطقة..

وفى ٨ ديسمبر ١٩٦٣ حمل إبراهيم يازدى إجابات الإيرانيين على الأسئلة التى طرحها عبد الناصر فى تقرير بخط يده نشره فتحى الديب لأول مرة .. وفيه أنه سيتخلصون من الشاه ويعلنون الجمهورية الإيرانية .. وسيطبقون نظاماً اشتراكياً يتماشى مع الإسلام المستنير .. وسيعارضون الأحلاف العسكرية .. ويعملون على الاحتفاظ بالتراب الإيرانى «الحالى» وإهمال كل ما يثيره الشاه من مشاكل بالنسبة للإمارات العربية فى الخليج واعتبار كا ما يطالب به الشاه (مثلاً البحرين وغيرها) خلقاً لمشاكلات لا أساس ولا واقع لها وهو ما لم تحترمه الثورة الإيرانية فيما بعد.

وتقرر عقد أجتماع جديد فى القاهرة فى الفترة من ٩ إلى ١٥ يناير ١٩٦٤ اشترك فيه خمسة قواد من قيادات الثورة زودوا بجوازات سفر مصرية تأكيداً للسرية .. والمثير للدهشة أنهم وقعوا على إيصالات رسمية بتسليم تذاكر الطائرة .. وفى الكتاب صور لهذه الإيصالات .. وفيه أيضاً صور لإيصالات تسليم النقود .. وبعضها لا يزيد عن ٥٠٠ فرنك سويسرى .. وأكبرها لا يزيد على عشرين ألف فرنك سويسرى .. وأتصور أن تكلفة العملية كلها لا تزيد على تكلفة حفل ساهر صاخب من حفلات رجل أعمال الآن.

وقد عقدت فى القاهرة خمس جلسات اتفق خلالها على أهداف الثورة وتوجهاتها

وأسلوب عملها .. وتقرر البدء فى تدريب قيادات الثورة فكرياً وعسكرياً فى معسكرات خاصة بالقاهرة فى موعد غايته يونيو ١٩٦٤ .. على أن تتولى ذلك المخابرات العامة .. وعين محمد نسيم (بطل عملية الحفار ورأفت الهجان الذى اشتهر بلقب نديم قلب الأسد) مسئولاً عن المتابعة .. وحسب تعليمات عبد الناصر .. وتولى فتحى الديب نقل هذه التعليمات للإيرانيين الذين سعوا بنقلها على الفور لزعمائهم الروحيين وهم: آية الله ميلانى .. وآية الله الخمينى .. وآية الله شريعت مدارى لتذكيرهم بزيادة الاهتمام بمعارضة الشاه .. واتحاد المسلمين ضد عدوهم المشترك إسرائيل والاستعمار بكل أنواعه. واستقر الرأى على تشكيل المكتب الدائم للحركة بالقاهرة من خمسة أفراد جاء ثلاثة منهم من داخل إيران هم رحيم عطائى .. وأحمد عباس سميعى .. وأحمد حاج سيد جوادى .. وهم من مؤسسى حركة الحرية الإيرانية .. ووضع برنامج التدريب وكانت مدته ١٠ أسابيع ويتضمن ويشمل قتال الصاعقة وحرب العصابات والحفاظ على السرية وقواعد الأمن .. والعمليات السرية مثل التجنيد والمراقبة .. والعمليات الفنية مثل التصوير واستخدام المفرقعات .. والدعاية والإعلام وعلم النفس الاجتماعي .. والعقائد السياسية.

وبينما كان الإيرانيون يتوافدون على القاهرة للتدريب على برنامج دعم الثورة دخلت وكالة المخابرات المركزية (الأمريكية) على الخط .. فقد اتصلت الوكالة بخسرو قاشقاى ووعدت بالتخلص من الشاه بدعوى أنه استنفذ أغراضه .. وأبدت رغبتها فى التعاون مع القيادات الوطنية ودعمها ومساندتها فى مقابل الحفاظ على المصالح الأمريكية فى حالة سقوط الشاه وانتصار الثورة .. وسارع خسرو قاشقاى بالسفر إلى القاهرة ليضعها فى الصورة «بالنسبة لمحاولات المخابرات الأمريكية التسلل داخل الحركة الثورية الإيرانية» .. وأعلن رفضه الاستمرار فى الاتصال بالمخابرات الأمريكية التى تلعب على كل الحبال .. ولا تتردد فى احتواء الثورات والحركات السرية .. وهو ما فعلته فيما بعد مع التنظيمات الإسلامية المسلحة التى سعت للحصول على السلطة بالعنف.

استمرت عملية تدريب الإيرانيين فى معسكر خاص فى انشاص - (وهى ضيعة كان للملك فاروق فيها مساحة كبيرة من الأرض الزراعية) - أعد لحركات التحرر المختلفة .. ولكن نزاعاً دب بينهم وبين المصريين كان سببه - كما يقول هيكل - «أن

القسم المختص فى المخابرات المصرية كان يريد من اللاجئين الإيرانيين أن ينضموا للعمل فى الإذاعات الموجهة من القاهرة للهجوم على الشاه . لكنهم رفضوا .. مصرين على أنهم قد حضروا إلى القاهرة للتدريب على فنون القتال فحسب .. وأن الكلمات لن تفلح فى الإطاحة بحكم الشاه .. ولم يفلح أحد فى إقناعهم بحكم الشاه .. ولم يفلح أحد فى إقناعهم بأن احتمالات المقاومة المسلحة فى إيران كانت فى حكم المستحيل .. وأن الدعاية عن طريق الإذاعة هى سلاح قوى فى ترسانتهم إلى أن تحين اللحظة المواتية .. لكن النزاع استمر وقرروا مغادرة مصر» ـ «مدافع آية الله» الطبعة العربية لدار الشروق صفحة ٩٨ .

لكن .. فتحى الديب لا يشير إلى هذا السبب .. ويقول أن سبب مغادرة الإيرانيين القاهرة فى أواخر عام ١٩٦٦ هو صعوبة الاتصال بينهم وبين قياداتهم فى الداخل .. وصعوبة الحفاظ على السرية اللازمة لعملهم .. ومن ثم فإنه يفضلون الانتقال إلى بيروت .. فهى أقرب إلى إيران .. والانتقال منها إلى طهران والعكس لا يثير الشبهات .. فهناك خطوط طيران رسمية بين البلدين .. كما أن الشيعة فى لبنان سيوفرون الكثير من الدعم والحماية .. كذلك فإنهم قد أخذوا من الخبراء المصريين ما يحتاجونه من برامج تدريب سيطبقونها فى أى مكان .. كما أن الذين تدربوا فى مصر سيقومون بدورهم بتدريب غيرهم.

ووافق جمال عبد الناصر على قرارهم قائلاً: «إن أقدر الناس على تحديد المناخ الصالح لممارسة النضال هم المناضلون أنفسهم» .. وكانت رسالته إليهم: «إننا لن نتخلى عنكم إلى أن تتحرر بلادكم» .

لكن .. القدر لم يمهل جمال عبد الناصر أن يعيش ليرى نجاح الثورة الإيرانية .. وليرى بعض الذين لجأوا إليه وقد تولوا مناصب الدفاع والسياسية الخارجية فى السلطة الجديدة .. وإن لم يمنع ذلك أن المسافة كانت كبيرة أحياناً بين الثورة والدولة .. فقد تراجع هؤلاء عن كثير مما وعدوا به .. خاصة إثارة مشاكل الحدود والجزر فى الخليج العربى .. كما أن فكرة تصدير الثورة جعلت الحساسية من الثورة الإيرانية تتضاعف .. على وزن الدراما السياسية كان لابد لها أن تكتمل .. فعندما جاء الخمينى إلى السلطة فى طهران .. كان المكان الوحيد الذى رحب بالشاه المخلوع هو القاهرة ..!!

الفهــرس

الصفحة







إنقلابات .. مؤتمرات .. حكايات .. خرافات
صراعات .. شخصيات .. و شخصيات شرسة
و ناعمة لعبت أدواراً فى أجهز
إنها كلمات تفتح ملفات ..
والملفات تلخصها مقالات وك
والمقالات و الكتابات للكاتب الص
عـادل حـمـ

عـادل حـمـودة